
سلسلة
الحياة الأرقى
كن وثنياً
فيبى فارس

سلسلة الحياة الأرقى

٢



قصة واقعية

فيبى فارس

١٩٩٩

١

♦ *"أويا .. أويا*" *.. ما الذي يحدث في بيتكم اليوم؟*

كان هذا هو صوت صديقي"كومي"، يسأل عن سبب الجلبة التي تصدر عن بيتنا. وفي الحقيقة كانت الجلبة التي يشهدها منزلنا تملؤني سروراً وطرباً، فاليوم سيعود خالي من البلاد البعيدة التي قضى بها سنتين متواصلتين. كنت أقفز فرحاً مسروراً برجليّ السمراويتين النحيلتين وأنا أتنقل في أنحاء المنزل. وكانت أختي"كُوجي" تساعد أمي في تجهيز الزيت والقمح والسمسم اللازمين للتقدمة التي ستقدم بعد قليل مع الذبيحة لإلهنا لمبوراث، وهو حجر كبير فوق قمة الجبل.

كنت وقتئذ في الخامسة من عمري تقريباً، وكان ذلك في عام ١٩٦٥ في بلدة "لويا" بجبال النوبة. ومع أنني كنت صغيراً، إلاّ أنني

---

* أويا = صديقي

كنت أشارك في الاحتفال بكل عواطفي. لم أكن فَرحاً فقط، وإنما كنت أيضاً فخوراً؛ وكيف لا أفتخر ووالدي "توتو-أنجالو" هو الكاهن المبجل لعشيرة "إرينغ"، وهي جزء من قبيلة مورو الكبيرة. ومورو قبيلة وثنية كبيرة، يزيد عددها على المائة والخمسين ألف نسمة، ومقسمة إلى قبائل عديدة: واريا، توبويلا، كاين، ندريا، نووا، إرينغ.

عاد كومي يناديني من الشارع:

♦ *توتو ألا تشاركنا اللعب اليوم.*

○ لا بالطبع، فأنا أستقبل الضيوف مع أبي ومع كوكو أخي.

إنني أتذكر هذه الأحداث فأضحك كثيراً لنفسي، فلم أكن وقتئذ إلا صبياً صغيراً لا شأن لي بالزوار، وإنما كنت فقط أحاول أن أثبت وجودي في ذلك الاحتفال. وعاد كومي يسألني:

♦ *أتسمح لي أن أشارككم الاحتفال.*

قلت له وأنا أشعر بفضلي عليه:

○ تفضل يا أخي.

بمجرد أن دخل كومي بدأنا لعبة مسلّية بالنسبة لنا؛ هي لعبة "البلي". وسرعان ما نسيت تماماً أمر الاحتفال، إلى أن تنبهت على صوت الزغاريد والتحيات من أفواه عديدة. ووجدت أبي يهم بحمل وعاءً كبيراً من الماء، ولكن الشباب تدخلوا ليحملوه عنه، وقدموه إلى

خالي خارج البيت ليغسل فيه رجليه، حتى لا يدخـــل البيــت بقدميــه مدنستين من عالمٍ لا يعبد الإله لمبوراث.

أخذت أشق طريقي بين جموع المحتشدين حول خالي، ولمـــا لــم أستطع أن أجد طريقاً، أخذت أهتف بصوتي الرفيع خالي "كنجو" إننـــي هنا. وحالاً وجدت ذراعيه تمتدان لتحملاني إلـــى أعلـــى، ووجــدت نفسي بين أحضان خالي، فتعلقت برقبته وأحطت خصره برجليَّ فـــي فرحة حقيقية.

وظَلَّ خالي يسلّم على الأهل والأقارب وهو يحملنـــي. وبعــد أن هدأت العواطف قليلاً، وجلسنا كلنـــا علـــى الأرض فـــوق الحصــير الممدود، ظللت هكذا متعلقاً برقبة خالي، وبين الفينـــة والفينـــة أميــل رأسه نحوي بشدة لأمنحه قبلة محبة. حاول كوكو، أخي الأكـــبر، أن يأخذني من بين أحضانه، فلم يستطع إذ كنت منذ صغري أتميز بشـــدة العواطف، وهي الصفة التي لازمتني طوال حياتي وحتى اليوم.

أخذت أمي توزع العصير على جميع المدعوين، بينما انهمك أبـــي في إعداد العدة للصعود إلى الجبل وتقديم الذبيحة. وكانت الذبيحة فـــي هذه المرة كبشاً صغيراً، وهي تُعتبَر ذبيحة صغيرة بالمقارنة مع ثـــور البقر الذي يقدم مرتين في العام؛ مرة في أوله ومرة في آخــره. فـــي أول العام ليضمن لنا الإله عاماً سعيداً، وفي آخر العام لنشــكره علـــى عنايته بنا.



ووجدت نفسي بين أحضان خالي. فتعلقت برقبته وأحطت خصره برجليَّ في فرحة حقيقية.

بدأت الرحلة إلى الجبل وكان أبي - وهو كاهن الإله لمبوراث - يتقدم المسيرة، ويحيط به كبار القوم من القبيلة، ثم يليه خالي كنجو مع صف الأقرباء والأصدقاء، ثم صفين تقريباً من القريبات والصديقات مع أمي وأختي.

وهنا أتوقف - عزيزي القارئ - لأحكي لك عن عائلتنا. فأبي، توتو أنجالو، هو كاهن عشيرة أرينغ - مورو، كما ذكرت لك، والكهنوت متوارث في عائلتنا فقط، ولا يجوز أن يأخذ هذه الوظيفة شخصٌ من عائلةٌ أخري، فنحن فقط نكوّن العائلة الكهنوتية. وكان أبي رجلاً ذا حكمة وفطنة، له رأيه الذي يُعتد به، وشخصيته المحترمة بين القبيلة كلها، كما كان رجلاً عطوفاً طيب القلب، ممتدَحاً من الجميع؛ وكنت أحبه وأفخر به جداً. أما كوكو أخي الأكبر فقد كان أكثر أفراد العائلة قرباً إلى قلبي، كنت أحبه محبة عجيبة، فكنت له كظله، أتبعه أينما ذهب، ولا أجلس أبداً على الحصير كباقي أخوتي، بل أجلس دائماً على رجليه وفي حضنه، كما لو كان هذا هو مكاني، وكان هو الآخر متعلقاً بي جداً، ويخشى عليَّ من الموت، فكان دائماً يردد على مسمع أمي أن أعظم مصيبة يمكن أن تحلّ به هو أن يفقدني في يوم من الأيام.

كان اسم كوكو هو اسم الابن البكر في أي عائلة من عائلات قبيلة مورو، كما كان اسم "كاكا" هو اسم البكر إذا كانت بنتاً، وأسماء الأبناء الذكور تتحدد غالباً بترتيب الابن بين الأبناء، وعلي ذلك فستجد في

هذه القصة تكراراً للأسماء حسب موقع الابن بين أبناء الأسرة.

كان أخي كوكو هو الابن البكر، ويليه أختي "كوجي" ثم أنجالو أخي الذي يكبرني مباشرة، والذي كان رفيق تسليتي طوال فترة طفولتي وصباي. ثم يأتي ترتيبي الرابع في الأسرة، وتصغرني بنتان "جفوه" و"كوجا". وكنا عموماً عائلة متحابة جداً، إذ كانت أمي "كاكا" سيدة طيبة القلب جداً، محبة وخدومة، وقد زرعت فينا بذور المحبة والطيبة، فكنت أشعر بدفء الأسرة وأستظل بمظلة الحب التي كانت تظللنا جميعاً.

أعود فأستكمل حديثي عن الرحلة إلى الجبل... سمعت صوت كومي يناديني:

- ♦ *توتو هيا بنا نتسابق.*
- ○ انتظر حتى أدعو أنجالو أيضاً.

غير أن كومي لم ينتظر، بل أخذ ينادي بكل ما أوتي من قوة.

ما إن حضر أنجالو حتى بدأنا هوايتنا التي كنا نمارسها في كل مرة نذهب فيها إلى الجبل، وظللنا نجري ونتسابق حتى وصلنا إلى الجبل، فأخذنا نلهو قليلاً، حتى وصل الجميع يتقدمهم أبي و"كودي" أبو كومي، إذ كان يعتبر من علية القوم ومن أكثر المهتمين بالطقوس الدينية.

بدأ الصعود إلى الجبل، صعد أبي وصعد الكبش خلفة إلى قمة الجبل، فصفق الجميع بسرور؛ فصعود الكبش باستقامة إلى قمة الجبل

يعني أن الإله راضٍ عن التقدمــــة. وردد أبــي بعــض العبــارات الطقسية، والتي لا أذكرها الآن، وقد تعالت الزغاريد والهتافات، بينمــا أخذ أبي الزيت وصبّه على الحجر. ثم ذبح الكبش ورشّ دمــه علــى الحجر، ووضع عليه القمح والسمســم؛ بينمــا الزغــاريد والــهتافات مازالت مستمرة، ونحن نقفز ونصفق في سرور، إلى أن نزل أبي مــن الجبل. فأخذ الجميع يهنئون خالي لقبول الإله ورضاه عليه. ثم عدنــا جميعنا إلى منازلنا بسرور. وإني أتذكر إني شعرت بالتعب والإعيــاء أثناء العودة من كثرة الجري والقفز، فتوجهت للتو إلى كوكو، وقلــت له وأنا أرفع ذراعيّ إلى أعلى:

- *كوكو احملني على ذراعيك، فأنا لا أقوى على السير.*

- حقاً؟ أيها العزيز الصغير!

ثم رفعني بذراعيه وقبّلني، وأخذ يربت على ظهري فــي حنــان. غير أن أمي وعمي انتهراه قائلين:

- *إنك تفسد الولد يا كوكو. إنه يستطيع أن يجري ويقفز بلا تعــب عندما لا تكون أنت موجوداً.*

سمعت هذه الكلمات فتشبثت أكثر برقبة كوكو حتى لا ينــتزعوني منه؛ وأحاطني هو بذراعيه قائلاً:

- لا تشغلوا بالكم فإن وزنه خفيف جداً، كما أنه صغير ورجـــلاه نحيلتان ولا تقويان على السير الطويل.

ثم نظر إليَّ مبتسماً وقال:

○ أليس هكذا يا صغيري؟

فقلت وأنا أنظر إلى رجليَّ:

♦ *نعم إن رجليَّ نحيلتان جداً*



بينما كنت أتقلب على فراشي ذات صباح، سمعت صوت أنجالو يقول لأمي:

♦ *أمي، لا تنسي أن تكثري البورج.*

و"البورج" هو خبز مصنوع من عجين باللبن، وكان أنجالو يحبه جداً.

○ نعم. لقد أكثرت من البورج، ووضعت أيضاً دقيقاً كثيراً في السلة لتقوموا بخبز ما تشاءون منه.

فهمت من الحديث أن الرحلة إلى المراعي، حيث نرعى أبقارنا، ستبدأ الآن. فقمت بسرعة وقلت بصوت مرتفع، وأنا أتحفز للزوبعة التي ستحدث، والتي تحدث في كل مرة.

♦ *أمي. سأذهب معهم.*

أجابت أمي بحزم، ويبدو أنها كانت تتحفز هي الأخرى للزوبعة.

o لا، لن تذهب يا توتو، ولا تكرر هذا الطلب.

♦ *لماذا لا أذهب؟ إنني أساعد كوكو وأنجالو وأعرف أن أرعى الأبقار مثلهم تماماً.*

قالت أمي بضجر:

o قلت لن تذهب.

♦ *لماذا؟*

o لا تسأل لماذا.

وكالعادة بدأتُ البكاء والعويل، وكالعادة أيضاً التجأتُ إلى كوكو.

♦ *كوكو. خذني معكم .. أنا لا أستطيع أن أبقى هنا وحدي بالبيت. كما أن كومي سيذهب مع أبيه لرعاية الأبقار، فكيف أبقى هنا وحدي بالبيت؟*

o إن أمك تخشى عليك يا صغيري من حياة المراعي. كما أنك صغير، وهي تحب أن تعتني بك لئلا تمرض ولا تجد من يعتني بك.

♦ *إنك تعتني بي أكثر من أي شخص آخر.*

o هذا صحيح ولكنك يجب أن تطيع أمك.

قلت وصوتي يتقطع بالبكاء:

♦ *خذني معك يا كوكو. أنا أريد أن أكون معك دائماً. لا تتركني يا كوكو. أرجوك لا تتركني.*

أمام هذه الكلمات لم يجد كوكو بداً من أن يرضخ لطلبي فقال:

○ إذاً توقف تماماً عن البكاء، وسأستأذن أمي بذهابك معنا.

سكتُ تماماً، وأخذت أنصت إلى كوكو وهو يتكلم مع أمي في الحجرة الداخلية. وما هو إلا قليل حتى خرجت أمي وهي نصف غاضبة وقالت:

○ أين ملابسك؟

قفزت بسرعة إلى صندوق ملابسي، وجمعت بذراعيَّ جميع الملابس، فأخذت أمي تفرزها واحدة فواحدة، تنتقي منها المناسب للرحلة. وعند باب المنزل تعلقت بأمي وقبلتها.

لم يكن في عينيَّ أثراً للدموع، فقد كانت فرحتي بالذهاب إلى المراعي كبيرة. أما هي فكانت تكفكف دموعها وهي تقبلنا واحداً فواحداً، فالرحلة في المعتاد تستغرق وقتاً يزيد عن الشهرين أو الثلاثة.

وهكذا بدأت رحلتنا إلى المراعي، وهو مكان فسيح تغطيه الحشائش الخضراء؛ ويبعد عن منزلنا حوالي ثمانية أو تسعة كيلومترات. فكنا نمشي ما بين أربعة أو خمسة ساعات لنصل

المراعي، ولكننا لم نكن لنعود إلا بعد عدة شهور.

كانت الأبقار التي نمتلكها تزيد عن السبعين أو الثمانين بقرة، وكان هذا العدد يعني أننا لسنا من فقراء القوم. وفي الواقع أننا كنا نُحسب دائماً من علية القوم، حيث أن والدي هو كاهن العشيرة المبجّل، ولدينا من الأبقار ومن الأرض ما يكفي لأن يضعنا في مصاف الأغنياء. ومع أن منزلنا كان مبنياً من الطوب اللبن ومسقوفاً بالطين والقش؛ إلاّ أن هذا لم يكن يعني نقصاً أو قلة، لأن هذا هو نظام المنازل جميعها في قريتنا "لوبا".

* * * *

وصلنا أخيراً إلى المراعي. وبالطبع كنت عبئاً ثقيلاً على كوكو الذي كان يحملني على كتفه كلما هممت بالجلوس على الأرض لأستريح. كان كوكو يبلغ وقتئذ السبعة عشر عاماً، وأما أنجالو فلا يزيد عن العشر سنوات، وكنت أنا في السابعة تقريباً.

وكانت عيشة المراعي متعة عظيمة لي؛ فلم أكن مسئولاً عن رعاية الأبقار مثل كوكو وأنجالو. كما أن أنجالو كان مسلّياً جداً، فكان يخترع الألعاب والتسليات أثناء رعاية الأبقار، وكان يتميز بخفة الدم حتى أنك لا تشعر معه بثقل المهمة أو طول الوقت. أما كوكو فكان يمثل المسئولية الحقيقية بالنسبة لرعاية الأبقار، والاهتمام

بشئوننا ومأكلنا وتدبير كل ما نحتاجه أثناء الرحلة. ولم نكن وحدنا في المراعي، فقد كان هناك دائماً صبياً أو أثنين متواجدين دائماً معاً لمساعدتنا في رعاية الأبقار، كنا نستأجرهما لتلك المهمة.

ما إن وصلنا إلى المراعي حتى بدأنا نجري ونلعب ونتقلب على الحشيش الأخضر، ونربت على أبقارنا في شوق حقيقي. كانت الشمس ساطعة والخضرة زاهية، والهواء النقي ويشعرنا بالصحة والحيوية.

وكان أحد الصبيان ويدعي "كُندة" مغرماً برواية القصص، فكنت إذا وجدت أنجالو مشغولاً عني بمساعدة كوكو في أمر ما، ألتجئ إلى كُندة، وأجلس بجانبه على الحشيش فيروي لي قصصاً مسلية. وإني أتذكر أنني في ذات صباح جلست بجواره وقلت له:

♦ *كُندة .. إن أنجالو مشغولٌ عني، فاروِ لي قصة من قصص آبائك وأجدادك.*

قال ضاحكاً:

o وماذا تعطيني.

أخذت أفكر فيما أعطيه، ثم تذكرت أن أبي يعطيه أجره في آخر كل شهر فقلت له:

♦ *إنك تأخذ أجرة على رعاية الأبقار ورعايتي.*

أخذ يضحك ملء شدقيه ثم قال:

○ إذاً، فاسمع هذه القصة.

وأخذ يحكي لي قصة متوارثة في عائلتهم؛ فقال:

○ كان لي جدّ قديم، وكان له أخ صغير يدعي "جلالـــو". وكـــان لجلالو صديق يدعي كافي. وذات يوم، بينمـــا كانـــا يرعيـــان الأبقار، قابلهم "الخواجا" (رجلاً أبيضاً)، وأخذ يتحدث إليهم عـــن إلهٍ آخر؛ وقال إن الحجر ليس إلهاً، وإنه ليس له أية قيمة لأنـــه لا يسمع ولا يتكلم، وقال لهم إن الإنســـان أفضـــل مـــن إلـــهنا العظيم. هل تتصور هذا يا توتو؟

قلت باستنكار:

♦ *طبعاً لا. لابد أن إلهنا سخط عليه.*

○ انتظر حتى تسمع باقي القصة. أخذوا يستمعون إليـــه، فقـــال لهم إن الإنسان توارث الخطية عن جدنا آدم، فعندمـــا تعـــدى آدم الوصية وسقط في الخطية أصبح الجنس البشـــري جنســـاً ساقطاً وخاطئاً، وأصبح كذلك في خصام مـــع الله ومحكومـــاً عليه بالموت الأبدي. ولكي يتصالح الإنســـان مـــع الله كـــان يجب أن يكون هناك مصالح له نفس قدر ذلك الإله، وله نفـــسٌ بشرية في آنٍ واحد؛ حتى يصالح الاثنين. وبالطبع ليس فـــي البشر كلهم من له قيمة ذلك الإله، لذلك فقد تجسد الإلـــه فـــي

صورة شخص يدعي يسوع، وقد قدّم نفسه ذبيحة عن الإنسان. وقد قال لهم إن الإيمان بيسوع والاحتماء في دمه الذي سُفك، هو الذي يغطي صورة الخطية أمام الله، فيرضى عن الشخص. هل تتصور يا توتو أن جلالو، شقيق جدي، صدّق هذه الخرافات؟

♦ *غريبة.. وماذا صنع معه الإله لمبوراث؟*

○ انتظر فترى ماذا حدث له: أخذ جلالو يشيع هذه الأخبار لكل الناس، وحذّره الجميع من غضب الإله، ولكنه لم يسمع لهم وقدّم الكاهن عنه ذبيحة للإله؛ ولكنه لم يقبلها.

♦ *كيف عرفت أن الإله لم يقبلها؟*

○ لو كان قَبلها لأعاده إلى صوابه وإلي دينه؛ ولكنه ذلك لم يحدث. ثم قدّم عنه ذبيحة أكبر، ولكنه أيضاً لم يقبلها. وذات يوم كان جلالو يرعى البقر مع كافي، فظهر لهما شبح ضخم مخيف لونه أسود ولسانه أحمر وأظافره حمراء وأسنانه طويلة ومخيفة، ومعه في يده سيخ يتوهج بلون أحمر بسبب سخونته الشديدة. وقال لجلالو:

- ارجع إلى عبادة لمبوراث فقد أرسلني الإله إليك لأعيدك إليه.

ومع أن كافي أرتعب إلا أن جلالو قال له بشجاعة:

= لقد آمنت بالإله الواحد وبالرب يسوع المسيح، ولن أعبد الحجر أبداً.

وقال كافي إن الشبح أخذ يقفز من كثرة الغيظ، ويصدر أصواتاً مخيفة، حتى أن كافي اختبأ وراء شجرة "وارا*" كبيرة، ولكنه نظر من خلفها فرأى ما أرعبه: لقد رأى جلالو يتلوى على الأرض، والشبح ينغزه بالسيخ الملتهب، وجلالو يصرخ صرخات مرعبة جداً. ثم فجأة تحول السيخ إلى سيف حاد، هوى به على جسد جلالو فقطعَّه إرباً إرباً، وظلت قطع الجسد تصرخ متلوية بعد تقطيعها. وكان الناس يسمعون صوت الصرخات كلما حلَّ الليل عليهم، ويقولون إن هذه البقعة من الأرض، التي قُتل فيها جلالو، مملوءة بالأشباح المخيفة، وإذا أقترب أحد إلى هذا المكان لابد أن يسمع صوت أنين مؤلم، فقد تحولت صرخات جلالو إلى أنين، ولقد سمعت بنفسي هذا الأنين المخيف يوماً من الأيام عندما كنت أرعى الأبقار بقرب تلك المنطقة.

ولأنني – عزيزي القارئ – كنت طفلاً صغيراً، فقد صدّقت هذه الخرافات، وبدأت أرتعش خوفاً ورعباً من الإله الذي يرسل الأشباح ليعذب خلائقه التي تخونه. وإني أتذكر إنني في ذلك اليوم لم أستطع

---

* نوع ضخم من الأشجار تنمو في أواسط أفريقيا.



ثم فجأة تحول السيخ إلى سيف حاد، هوى به على جسد جلالو فقطَّعه إرباً إربا

أن أتناول غذائي، وودت أن أموت قبل أن يقـــابلني "خواجـــا" ويؤثـــر على أفكاري. وأخذت أردد كلمات تبجيل وتعظيم للإله حتى يرضـــى عني، ومع ذلك لم يفارقني الشعور بالخوف طيلة ذلك اليوم.



بعد بضعة أيام – وكان ذلك بعد مرور شهرين تقريباً على وجودنا بالمراعي – حضر أبي ليفتقد سلامتنا وينظر أحوال البقر. لم يكن أبي بشوشاً كعادته مما أشاع جواً من الكآبة من حولنا، وحاول أنجالو أن يعيد البهجة إلى النفوس بمرحه ونكاته، ولكن أبي كان جامداً حزيناً. اقتربت إليه وسألته:

♦ *لماذا لا تتكلم كثيراً يا أبي؟*

ربتّ أبي على وجهي في صمت وابتسامة باهتة على شفتيه. وفي المساء جلسنا جميعنا على الحُصر لتناول عشاءنا الذي يجهزه لنا كوكو. وسمعت أبي يقول لكوكو بصوت حزين:

○ إن القضاء لابد أن يحل على قبيلتنا قريباً، فقد حدث ما لَم أكن أتوقعه أبداً.

توقف كوكو عن إعداد الطعام، ونظر في خوف إلى أبي.

♦ *ماذا حدث يا أبي هل خان أحدٌ إلهنا العظيم؟*

○ نعم، هذا ما حدث بالضبط. وهل تعلم من هو؟

وتنهد أبي في ألم، فصاح كوكو:

♦ *مـن؟ مـن يـا أبـي؟ أخبرني بسرعة.*

○ إنه كودي.

وصرخنا جميعاً في صوت واحد:

♦ *كودي؟ أبو كومي؟*

لقد كان خبراً مفزعاً جداً، فقد كان كودي رجلاً له مكانته وكلمته المسموعة في قبيلتنا، وكان ضمن المهتمين بالأمور الدينية، ومتشدداً جداً للعبادة الوثنية. وأن يخون الإله رجلٌ كهذا، فهذا يعني قضاءً رهيباً سينزله الإله على القبيلة كلها.

وشعرت بالخوف يغشاني، وتذكرت جلالو، وارتسمت أمام عينيَّ صورة الشبح وهو يعذبه. وتخيلت أنني أسمع صرخات تأتي من بعيد، من تلك البقعة التي قُتل فيها جلالو.

كانت أخبار ارتداد كودي عن العبادة الوثنية هو الحديث المفزع الذي شغل معظم فترة المساء. وكنت أتخيل كودي وهو يتلوىّ على الأرض، والشبح يضربه بسيخه الملتهب؛ فكنت أزداد ارتعاباً وخوفاً.

وفي الصباح اقترح كوكو أن نعود مع أبـــي إلـــى لوبـــا، لتقديـــم الذبيحة لإلهنا لكي يرضي عن القبيلة ولا ينزل بها قضـــاءه المريـــع. ووافق أبي بسرعة، وكأنه كان ينتظر هذا الاقتراح مـــن كوكـــو، فقـــد كان كوكو شخصيه يُعتمد عليها وعلي رأيها في كل شيء، ويبـــدو أن أبي يشعر بالراحة في رفقة كوكو أكثر من أي شخص آخر.

ما إن وصلنا إلى المنزل حتى امتلاء بالزوار، وكـــانت الأحـــاديث كلها تدور حول ذلك الخبر المحزن؛ وهو خيانـــة كـــودي، والغضـــب الذي لابد أن يحل على القبيلة كلها.

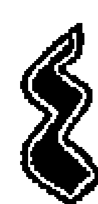
ومرة أخري بدأت أمي تعد العدة للرحيل إلى الجبل، وأختي كوجـــي تساعدها في إعداد الزيت والسمسم والقمح، أما أنجالو فقد كـــان ســـاكتاً هادئاً على غير عادته، فقد كان الجو العام كئيباً جداً على نفوسنا.

فتحت الباب لأبحث عن صديقي كومي، فقد كان صديقـــي كومـــي يقطن بجوارنا؛ ولكنني لم أجد له أثراً. وكررت المحاولة عدة مـــرات، وأخيراً وجدته يهم بالخروج من منزله. وما إن رآنـــي حتـــى دخـــل بسرعة إلى المنزل صافقاً الباب خلفه. وشـــعرت بـــالحزن لأجلـــه، وطفرت الدموع من عينيَّ رغماً عني؛ لقد كنت أحب صديقـــي، وفـــي الواقع أنني كنت أبحث عنه لأواسيه في ظرفه المؤلم.

بعد عودتنا من الجبل كان عدد الزوار الذين دخلوا منزلنا كبـــيراً، فقد كان للحدث وقعه السيئ على جميع أفراد القبيلة، وعلي أبي الـــذي

لم يستطع أن يحبس دموعه، فعادوا معه حتى لا يتركونه لأحزانه.

كنا في هذه الفترة نسمع يومياً عن أخبار المبشرين بالدين المسيحي التابعين للإرسالية الأسترالية، وكل بضعة أيام نسمع خبراً عن شخص ترك الوثنية واعتنق المسيحية فيزيد حزننا وانزعاجنا.



كانت الشمس تميل إلى الغروب، ونحن ما زلنا نمرح بين الأشجار، ونقذف التمر على أحدنا الآخر، ونختبئ بين الأشجار حيناً ونتسابق حيناً؛ حتى سمعنا صوت صفارة مألوفة على مسامعنا. انتبهنا بسرعة، فوجدنا كوكو قادماً نحونا وهو يحمل حقيبته على كتفه، ويلوّح لنا في سرور واشتياق. هرعنا إليه بكل ما أوتينا من قوة، وتبادلنا العناق الحار، فقد كان كوكو قادماً من الخرطوم بعد انتهاء العام الدراسي، وبعد غيبة دامت خمسة أشهر.

كان كوكو وقتئذ في السنة الثالثة الدراسية لتعليم الكبار، ولم يكن في لوبا، عند التحاقه بالمدرسة، أية مدارس للكبار أو للصغار، وإن كانت قد أنشئت ثلاثة مدارس بعد دخوله المدرسة بعامين. وكان من المقرر أن يلتحق أنجالو بالمدرسة الخاصة بتعليم الكبار في لوبا في العام الدراسي المقبل.

تركت كوكو وأنجالو، وأسرعت عائداً إلى البيت لأزف لأخي الخبر. ثم أسرعت فطرقت بشدة باب المنزل الذي تسكن فيه أختي كوجي، وقبل أن يفتح الباب، كنت قد عدت مرة أخرى إلى كوكو أقبّله وأعانقه.

امتلأ البيت بِشراً بعودة كوكو، وأخذ "كالو" و"كوي" أبناء أختي يتقاذفان البالونات الملونة التي أحضرها لهم كوكو، ويصفران صفيراً مزعجاً بالصفارات التي أهداها لهما.

ومع أن أمي كانت حبلى في شهرها السادس تقريباً، إلا إنها لم تكف عن عمل أنواع العصير والحلوى، فقد كان لكوكو معزّة خاصة وكبيرة عند كل أفراد العائلة على السواء.

في المساء جلسنا حول كوكو نستمع إلى أخباره، وإلي ما حدث معه من طرائف في فترة غيابه. أخذ كوكو يفكر ملياً في حادث أو موقف يكون من شأنه تسليتنا، وأخذ يخبط على جبهته وهو يردد:

- موقف طريف.. موقف طريف.. آه نعم؛ إليكم هذا الموقف الطريف جداً.

هللنا جميعاً:

- *ماذا حدث معك؟ قُصّ علينا كل شيء بالتفصيل، كالو، كوي، العبا خارج المنزل إن صفافيركم مزعجة جداً.*

○ إذاً، فاسمعوا هذا الموقف:

منذ حوالي أربعة أشهر طلب مني خالي "كنجو" أن أذهب معه لزيارة جدي في مصحة البرص (ثم نظر إلى والدي قائلاً:) وبالمناسبة فهو بخير ويهديك سلامة الكثير. اعددنا الحقيبة الخاصة بالسفر، ثم توجهنا إلى الطريق الطويلة المؤدية إلى المصحة.

في أول الطريق توجد نقطة مرور بها بعض قوات الأمن للتفتيش، حيث إنه من المعروف أن تلك الطريق يكثر فيها قطاع الطرق لأن جميع الذين يقصدون هذه الطريق يحملون لذويهم ملابساً ونقوداً واحتياجات كثيرة. وقفنا في الطابور الطويل، غير أن أحد أصدقاء خالي طلب منه مساعدة ما، فترك مكانه في الطابور، وتقدمت أنا عنه ببضعة أشخاص. بعد دقائق سمعت صوت عراك شديد خلفي. ألتفت لأجد أحد الأشخاص يمسك بخناق خالي كنجو مدّعياً أن خالي قد استولى على مكانه في الطابور، ولكي أحل المشكلة تركت مكاني وطلبت من الرجل أن يأخذ مكاني أنا، وعدت أنا إلى الوراء خلف خالي.

ما إن أنتهي التفتيش وبدأنا سيرنا حتى أكتشف خالي أن حافظة نقوده قد سُرقت. وفهمنا بالطبع سر المعركة المفتعلة. كانت صدمة كبيرة لنا فقد أودعها خالي كل نقوده وبطاقته الشخصية وبعض الأوراق الهامة. لم نعرف كيف نتصرف وفكرّ خالي في العودة من

حيث أتي، فلن يستطيع أن يقابل أباه بيد خالية، والمعـروف أن جـدي أصبح عصبياً جداً من يوم دخوله المصحة. غير أنني بذلـت جـهداً كبيراً لأقنع خالي بعدم جدوى العودة، فالمحفظة قد ضاعت إلى الأبـد، والعودة لن تفيد شيئاً ولن تعيد ما فُقد؛ فلنكمل مسيرتنا ولا نخلي بـالجد الذي ينتظرنا في أول كل شهر.

بينما نحن نواصل سيرنا، وكانت المنطقة خالية تمامـاً وموحشـة إلى حدٍ كبير، فاجأنا أحد قطاع الطرق وفي يده تلمع مديتـه الحـادة، وأمرنا بالتوقف ورفع أيدينا إلى أعلى. انصعنا إلى أوامره في الحـال، وبدأ يفتش جيوبنا بدقة ويبحث فيها عن أي عملة نقدية. ولما لم يجـد سألنا في دهشة:

♦ *أين نقودكم؟*

أجابه خالي في هدوء:

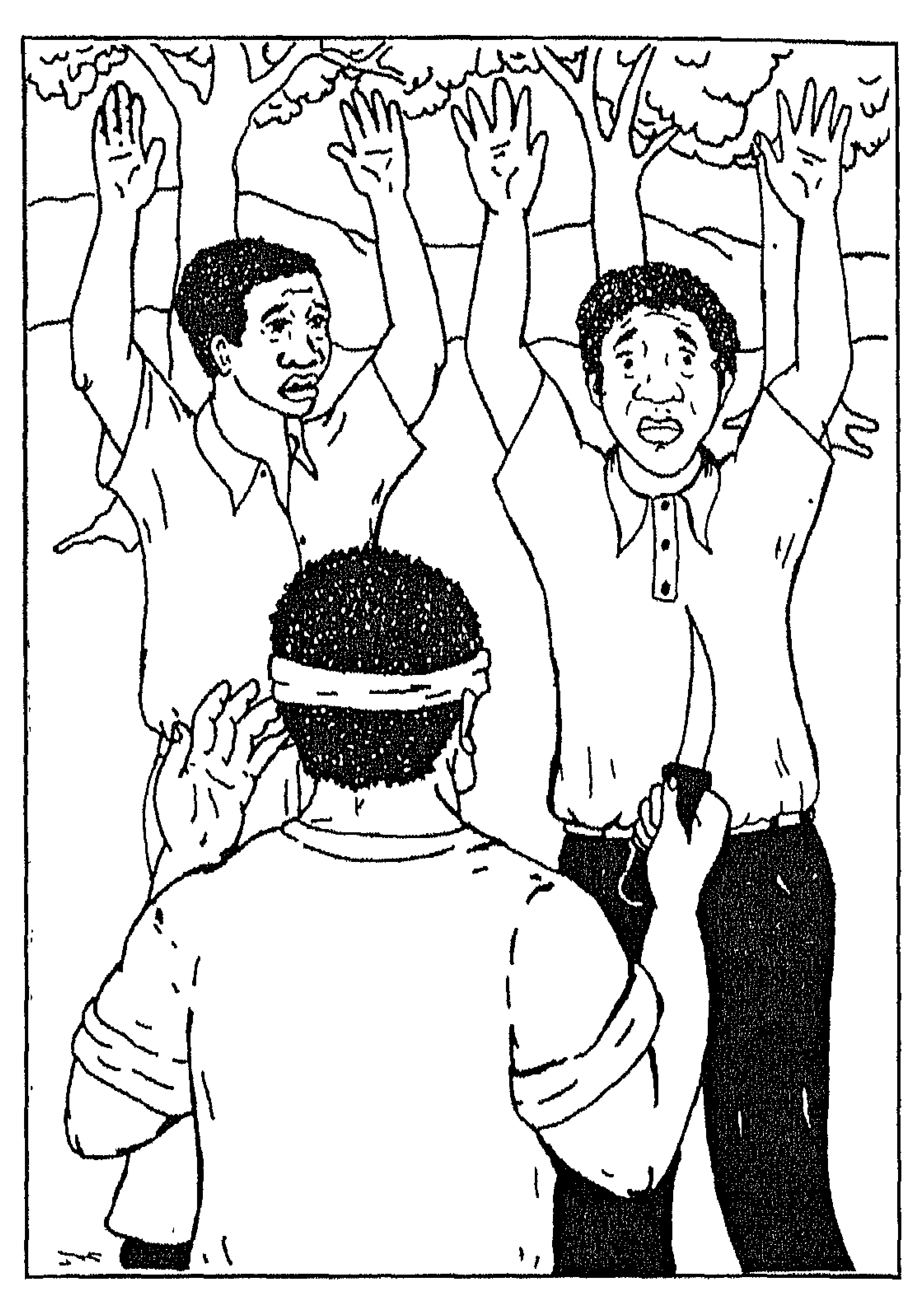
○ لقد سُرِقَت.

قال الرجل بإصرار:

♦ *افتح هذه الحقيبة.*

فتح خالي الحقيبة، وفتشها الرجل تفتيشاً دقيقاً. ولمّا لم يجـد بـها أية نقود قال ضاحكاً:

♦ *إنـني أحياناً أكون شهماً للغاية.*



فاجأنا أحد قطاع الطرق وفي يده تلمع مديته الحادة، وأمرنا بالتوقف ورفع أيدينا إلى أعلى

ثم أخرج من جيبه حافظة نقود وهو يقول:

♦ *خذ هذه بدل المسروقة.*

أخذ خالي الحافظة وهو لا يكاد يصدق عينيه؛ لقد كانت حافظة نقوده هو.

هتفنا جميعنا:

♦ *غير معقول. هذه مصادفة عجيبة. لقد أخذها من السارق وأعادها لصاحبها.*

أجاب كوكو:

○ أما الأعجب من هذا أننا وجدنا جدي في حالة هدوء وسلام عجيبة. لقد كنا نخشى مقابلته ونعمل له ألف حساب، فقد كان دائم الهياج والتوتر. أما في هذه المرة فقد وجدناه هادئاً لطيفاً بشوشاً. أخذ يحكي لنا عن طاقم الخدمة بالمصحة وعن محبتهم العجيبة. وقد كان موقفه هذا مفاجأة كبرى لنا حتى أن خالي كان محقاً عندما قال أن المفاجأة الثانية كانت أكبر من الأولى.

سأله أنجالو:

ألا تعرف سبب هدوءه وسلامه؟

نظر كوكو نحو أمي بحذر، ثم قال بتردد:

○ لا.. لا أعرف بالضبط.

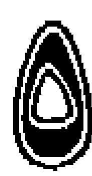
قبل أن ننام، سألنا كوكو مرة أخرى عن سبب التغيير الذي طـــــرأ على جدي، وقد ظننا أنه ربما يكون قد شعر بقرب نهاية حياتـــه، فلـــم تصبح الأمور ذات قيمة كبيرة عنده؛ وذلك سبب الحذر الــذي توخـــاه كوكو عندما سألناه أولاً. غير أن كوكو تردد كثيراً قبل أن يجيبنا:

- إنني أعتقد أنه تأثر بالمسيحيين، أي بطــاقم الخدمـــة الموجـــود بالمصحة. فالمعروف عن هؤلاء المسيحيين أنـــــهم يتمـــيزون بالوداعة والهدوء وسلام النفس.

سأله أنجالو:

- *ولكن ما سبب سلامهم؟*
- لا أعرف بالتحديد ولكنه أمر واضح لا يعتريه شك.
- *هل سيصبح جدي مسيحياً؟*
- هذا ما أخشاه. فقد أبتدأ ينهج منهجهم في تفكيره؛ فعندما ذكرنـــا له قصة الحافظة المفقودة وكيف اســـتُردت، أجـــاب أن الإلـــه المحب يعتني بنا ويهتم بأمورنا، صغيرها وكبيرها، وهـــو مـــا يتمسك به المسيحيون ويكررونه وهو أنَّ الله مملـــوء بالمحبـــة. إنها نفس تعبيرات المسيحيين.
- *كونه يتأثر بلغتهم لا يعني أنه تأثر بديانتهم.*
- ربما... على أي الأحوال إياكم أن تذكروا شيئاً من هذا القبيـــل لأمي.

وبمرور الوقت نسيت تماماً ما قاله كوكو عن جدي فقد كان الأمـــر في الحقيقة مستبعداً تماماً عن خيالي.



قاربت العطلة الصيفية علي الانتهاء وكان كوكو يستعد للعودة إلـــي الخرطوم لاستكمال دراسته، وأنجالو يستعد لدخول المدرسة لأول مـــرة في لوبا. وقد استمتعنا في هذه العطلة الصيفيـــة بممارســـة هوايـــات كثيرة؛ كصيد السمك وصيد العصافير وممارسة ألعاب أنجالو المســـلية والتي لا تنتهي.

ثم حدث أمر كان كفيلاً أن يسلب سعادتنا دفعة واحدة. فبينمـــا كنـــا نتناول غذاءنا في أحد الأيام الحارة في صيف عام ١٩٦٨، سمعنا طرقـــاً علي الباب. همّت أمي أن تقوم، ولكنها كانت حبلى علي وشك الـــولادة، فقمت أنا بسرعة وفتحت الباب. وجدت أمامي ثلاثة رجال من قبيلتنـــا، لم تكن علاقتنا بهؤلاء الرجال شديدة، وكان ترددهم علي منزلنا نـــادراً؛ لذلك تعجبنا جميعاً من زيارتهم المفاجئة في مثل هذا الميعاد.

قام أبي عن الغذاء، ورحب بهم وأدخلهم حجرة داخليـــة، وأغلـــق

الباب. أما نحن فلا أدري لماذا لم نستكمل غذاءنـــا، لقــد شـــعرنا أن هؤلاء الرجال يحملون لنا خبراً مفاجئاً. كنت وقتئذٍ أبلغ الثامنـــة مـــن عمري، وإني أتذكر أن ذلك اليوم كان يوافق دخول أنجـــالو المدرســـة لأول مرة في حياته، وكان عمره حوالي إحدى عشر عاماً، كما يوافـــق يوم ولادة أختي جفوه.

طال انتظارنا لخروج الضيوف، ولم يستطع أحدٌ منا أن يمد يده إلـــي الطعام. وإني أتذكّر أنني كنت أشعر بانقباض غريب، حتى إننـــي مـــع كثرة الحر وعطشي الشديد وجفاف حلقي لم أجد رغبة فـــي أن أرتشـــف قليلاً من الماء. وكنت أنصت فأسمع صوت أنين غريب. وسألت أمي:

- ♦ *هل تسمعين صوت أنين يا أمـي؟*
- ○ كلاّ.
- ♦ *إننـي أسمعه جيداً.*
- ○ من أي جهة تسمعه.
- ♦ *من تلك البقعة التـي قُتل فيها جلالو.*

انزعجت أمي وسألتني:

- ○ هل أنت مريض؟ هل تشعر بصداع أو ألم ما؟

قبل أن أجيبها، خرج الثلاثة ضيوف منكســـين رؤوســـهم؛ فقمنـــا جميعاً بسرعة ودخلنا الغرفة لنجد أبي وقد جلس ساهماً نـــاظراً إلـــي سقف الحجرة. هتفنا جميعاً في صوتٍ واحد:

♦ *ماذا في الأمر؟ ماذا قالوا لك؟*

رأينا الحزن يرتسم علي وجه أبي. ثم أعتدل في جلسته ونظر إلي الأرض وهو يقول في ألم بالغ:

○ لقد أعتنق خالكم كنجو المسيحية.

ثم تنهد وقال:

○ ويقولون...

صرخنا جميعاً. وأتذكر أنني جلست علي الأرض أرتجف بشدة، بينما أخذت أمي تلطم علي وجهها. لم يكن أحد متماسكاً فينا سوى كوكو، فأخذ يهدئ من روع أمه وأبيه، ثم سأل أبي في همسٍ خافت:

♦ *وماذا يقولون أيضاً؟*

لم يستطع أبي أن يجيب، وإنما نظر نحو أمي؛ ففهم كوكو قصده، وأخذ أمي إلي حجرتها خاصة، وقد بدأ بكاؤها يتحول إلي تأوهات بسبب ألم الولادة التي فاجأتها. سألت أبي في خوف:

♦ *وماذا يقولون أيضاً؟*

لم يجبني أبي. ولكن بمجرد عودة كوكو قال له:

○ يقولون إن أخاه كوناجي سائر في ذات الطريق.

جلس كوكو علي الأرض وأسند رأسه علي ركبتيه، ثم رفع رأسه فوجدت الدموع تترقرق وهو يمسحها بطرف جلبابه؛ فانزعجت جداً.

إن كوكو كان يمثل بالنسبة لي القوة والشجاعة والقدرة علي مجابهة المصاعب، ولذلك فقد أفزعتني دموعه جداً. اقتربت إليه، كنت أريد أن أخفف حزنه، فإن حزن كوكو كان كفيلاً أن يكسر قلبي تماماً. فأخذني كوكو علي ركبتيه وضمني إليه في حنان، فقد كنت حزيناً بالحق علي أخوالي، وكنت خائفاً عليهم جداً من غضب الإله، وطلبت من أبي أن يقدم أكبر ثور عندنا حتى نرد غضب الإله، وإن لم يقبل الذبيحة نقدم أثنين أو ثلاثة؛ المهم أن يقبل ذبيحتنا.

هدّأني كوكو قائلاً:

♦ *اطمئن. إننا لن ندعه يغضب علينا.*

فسألته:

○ وعليهم؟ هل ذبيحتنا ترد غضبه عن أخوالي؟

♦ *إننا سنقدم ذبيحتين، واحدة عن القبيلة كلها وواحدة عن أخوالي.*

○ إنني أخشى أن يقطّعهم الإله بسيفه الحاد ويعذبهم بسيخه الملتهب.

لم يرد أحدهم عليّ، وإنما ضمني كوكو إلي صدره ليطمئنني، فشعرت بالسكينة نوعاً ما في حضنه الكبير.

بدأت تأوهات أمي تزداد بشدة، فأسرع كوكو إلي سيدة عجوز معروفة في قريتنا بالتوليد، وهكذا ولدت جفوه أختي التي تصغرني

بثماني سنوات. وكانت ولادة جفوه في ذلك اليوم عاملاً هاماً على خروجنا من مأساتنا إلي حد ما.

* * * *

كان شوقي يتزايد لرؤية أخوالي، فطلبت من كوكو أن يأخذني إلي الخرطوم لزيارتهم، فقد كنت أعتقد أنهم لن يدخلوا لوبا إلي الأبد، فالمسافة بين لوبا والخرطوم كبيرة، كما إنهم غير مسموح لهم بدخول منزلنا لئلا ينجسوه. غير أن كوكو كان يسافر إليهم في زيارات متباعدة.

وذات يوم بينما كان أبي في الحقل، أخبرني أنجالو أن خالي كنجو سيحضر اليوم من الخرطوم. لم أصدقه، واعتقدت أنه يمزح كعادته، ولكنني فوجئت بكوكو يدخل هاتفاً:

♦ *أمي سأخبرك بخبر يفرحك؟*

سألته أمي في اندهاش:

○ وما هو؟

♦ *خالي كنجو حضر من الخرطوم.*

هتفت أمي:

○ وأين هو؟

♦ *في بيت كودي.*

ولك أن تتصور فرحتي أيها القارئ، لقد قفزت من مكاني بسرعة كبيرة، وما هي إلا لحظات حتى كنت في حضن خالي أعانقه وأقبله.

ولحقتني أمي بعد قليل، ووجدتها تبكي كثيراً وهي تعانقـــه. وقـد ظننت أول الأمر أنها تبكي من فرط سرورها برؤياه، لكنني أدركـــت بعدئذٍ أن مشاعر الفرح به والحزن عليـــه والعتـــاب معـــه اختلطـــت جميعها، فانهمرت الدموع من عينيها بغزارة.

ما أن حضر أبي من الحقل حتى استقبله كودي خــــارج المـــنزل، وأخبره أن خالي موجود عندهم بالمنزل. تردد أبي في الدخول إلـــي منزل كودي، فهو لم يدخل منزله منذ أعلن مسيحيته.

وشعر كومي بحرج الموقف، فدخل المنزل وأخبر خـــالي أن أبـــي يقف خارجاً. فقام خالي لمقابلته، ولكنه لم يمد يده بالســـلام حتـــى لا يحرج أبي؛ فقد كان معرفاً أن أبي لن يصافحه باليد. وتبادل معه أبـــي بعض العبارات التقليدية كالسؤال عن سلامته وصحته؛ ثم سأله:

♦ *هل "كاكا" أختك بمنزل كودي؟*

○ نعم. هل تريدها أن تعود إلي المنزل؟

تردد أبي قليلاً ثم قال:

♦ *لا، لا. دعها تمكث معك بعض الوقت. إنها في اشتياق شـــديد إليك*

ثم أضاف متلعثماً:

♦ *إنني... إنني أيضاً مشتاق عليك؛ ولكنني لا أستطيع أن...*

وفّر خالي عليه هذا الإحراج فقال له:

○ أنا أعلم كل شيء، وأقدّر ظروفك أنك لا تستطيع أن تســـتقبلني

في بيتك، ولا تستطيع أن تدخل بيت كـــودي. والحقيقـــة أنـــا أشكرك إنك سمحت لأختي بزيارتي في بيت كـــودي؛ إن هـــذا كرم عظيم منك.

أثناء وجـــودي فـــي بيـــت كـــودي ظللت طوال الوقـــت ملتصقـــاً بخـــالي، وظلّ خالي محيطـــاً جســـدي النحيـــل بذراعه القوية، ثـــم وجدتـــه يحملنـــي ويضعنـــي علـــي رجليه حتـــى أزداد قرباً منه. والحقيقـــة أن مشاعري كـــانت مضطربة إلي حـــد كبير، وأتذكر إننـــي همست في أذنه عدة مرات:

♦ *عُد إلي الإله لمبوراث يا خالـي.*

○ لماذا؟

♦ *'أنني خائف عليك.*

○ ممَّ تخاف عليَّ؟

♦ *من سيف الإله.*

○ لا تخف إنَّ إلهي يحبني جداً، وهو قوي أيضاً جداً، ويحميني من كل شر.

ولكنني كنت لا ألبث أن أكرر طلبي:

♦ *خالي عُد إلي الإله لمبوراش. إنني خائف عليك.*

وفي كل مرة كان يجيبني بنفس الإجابة المطمئنة. ولكنني أبداً لم أطمئن. وبعد عودتي إلي المنزل لم أستطع أن آكل أو أنام نوماً هادئاً، بل كنت أشعر أنني مضطرب جداً، وكانت الدموع تملأ عينيَّ طوال الوقت.



تكررت زيارات خالي كنجو إلي منزل كودي، خاصة وأن عائلة كودي كلها قد أعلنت مسيحيتها؛ بما فيهم صديقي كومي. وكانت أمي تذهب إلي بيت كودي كلما علمت أن خالي هناك، وقد تعددت زيارات خالي إلي لوبا، خاصة وأنه في تلك الفترة كان يعمل بالزراعة في مكان لا يبعد عن لوبا كثيراً.

وفي الواقع أن خالي كان يزور عائلة كودي خصيصاً ليتقابل مع أمي ويحدثها عن الرب وعن الفداء العظيم، غير أن أمي كانت متشبعة بالديانة الوثنية إلي حدٍ بعيد فلم يُجدِ معها كلام أو حديث.

وفي ذات يوم ذهبت مع أمي إلي منزل كودي، وكان خالي هناك وأتذكّر أنه أخذ يكرر القول وهو يتناقش مع أمي:

○ إنَّ الله الحي الحقيقي لا يسكن في حجر، وإنما يسكن في قلوب المؤمنين به.

♦ *فهل كان أجدادنا وأجداد أجدادنا كلهم مخطئين؟*

○ نعم كانوا مخطئين أشد الخطأ.

♦ *ألا تخاف من الإله لئلا يصيبك بضرر بالغ علي أقوالك هذه؟*

تدخلت في الحديث بسرعة بعد أن تذكرت قصة جلالو.

♦ *خالي اعتذر للإله من فضلك. أرجوك قدم له ذبيحة اعتذار، أنت لا تعلم مقدار تعذيبه للشخص الذي يخونه.*

○ اطمئن يا توتو، إن الحجر لا يفيد ولا يضر. إنَّ الله الذي أعبده يسكن فيَّ ويملؤني فرحاً وسروراً.

♦ *أتقدم له ذبائح؟*

○ لا. أنا لا أقدم ذبائح لأنني مهما قدمت من ذبائح فهي أقل من أن تفيه حقه أو ترد له اعتباره عن عصياني له وخطأي في حقه. ألا تعلم أن الرب يسوع ابن الله قدم نفسه ذبيحة عني مرة واحدة علي الصليب وبذلك صرت أنا مبرراً؟

قاطعته أمي بسرعة:

♦ *لا يا أخي. إن ما تقوله لا يزيد عن أوهام وخيالات. إن حزني عليك كبير جداً يا أخي، إنني كثيراً ما قضيت الليل كله مستيقظة وأنا أشعر بالحسرة والألم من أجلك.*

ثم بدأت نبراتها تهتز، والدموع تسيل من عينيها؛ ثم سألته بين

دموعها وصوتها يهتز بالبكاء:

♦ *ومن أقنعك يا أخي من أقنعك؟ من الذي أقنعك أن تخون الإله العظيم لمبوراث لتعبد إلهاً آخر؟*

لفّ خالي ذراعه السمراء الطويلة حول أمي وهو يقول:

♦ *اهدئي يا أختي وسأخبرك بكل شيء.*

كفكفت أمي دموعها، وشعرت أنا أن كل وجداني يتركز في حديث خالي حتى لا تضيع كلمة واحدة مني. إنني أتذكرّ كلماته كما لو كانت بالأمس القريب. قال:

- أنت تعلمين أنه منذ عام تقريباً وأنا أتردد على المصحة الخاصة بمرضى البرص، والتي أنشأتها الإرسالية الأوروبية، لزيارة أبي. كنت أزوره مرة كل شهر تقريباً، في البداية كان أبي دائم التذمر، وكأنه كان ينتظر حضوري ليسكب ما في قلبه من مرارة، وكان لا يفتأ أن يسأل عن سبب إصابته بالمرض. كان دائماً يشعر بأن الإله لمبوراث قد ظلمه، فهو لم يتأخر عن تقديم الذبائح في مواعيدها ولم يُغضب الإله في شيء كبير أو صغير. ثم كان يعود فيطلب مني تقديم ذبائح للإله لعله يعفو عنه. وفي كل مرة أعود لزيارته كان يبتدرني بالسؤال:

♦ *هل قدمت ذبائح من أجلي؟*

○ نعم يا أبي.

♦ *هل قدمت ثوراً كبيراً.*

○ قدمت أكبر ثور عندنا.

وفي كل مرة عند هذه الإجابة كان يبدأ في التوتر والانفعال.

♦ *فماذا إذاً؟ أتظنه يريد شيئاً آخر؟ إنني أثق تماماً إنني لم أغضبه في شيء، ماذا يريد هذا الإله؟*

○ ربما تكون قد أخطأت في حقه سهواً.

♦ *ولكنني قدمت ذبائح كثيرة. ألم تقدم أنت عني ذبائح كثيرة؟*

○ نعم يا أبي. لقد قدمت فعلاً ذبائح كثيرة عنك. ولكن لا تنسَ أنه إله، وله حق أن يفعل ما يشاء.

وعند هذه الإجابة كان يثور ويغضب وأضطر أنا لمغادرة المكان إذ أجد أنه لا فائدة من الحديث معه.

غير أنه منذ حوالي أربعة أشهر تغير الأمر معه تماماً. كنت أدخل إليه فأجده مبتسماً هادئاً، وبمجرد جلوسي بجواره يبدأ الحديث معي عن طاقم الخدمة بالمستشفى، وكان يسميهم الملائكة. وأتذكر أنه قال لي ذات يوم:

♦ *هل ترى يا بنيّ هؤلاء اللابسين الثياب البيض؟ إنهم ليسوا بشراً، إنهم فوق البشر. لقد أذهلتني محبتهم وتضحيتهم.*

تصور أن بعضهم أصيب بالبرص بسبب العدوى، ومع ذلك فهم دائماً سعداء مسرورين. إن محبتهم لنا تذهلني، حتى أنني سألت أحدهم ليلة أمس عن سبب تضحيتهم الكبيرة لنا، فأجابني بأنها المحبة التي تملأ قلوبهم من نحونا. ولمّا سألته عن سبب تلك المحبة أخبرني أن إلههم هو في ذاته محبه وقد سكب هذه المحبة في قلوبهم.

بعد مرور شهر تقريباً زرته مرة أخرى، وطوال المدة التي قضيتها معه لم يتحدث أبي عن شيء إلاً عن أولئك الملائكة وعن إلههم الذي هو في ذاته محبه.

عدت إلي الخرطوم بعد تلك الزيارة، غير أن كلمات أبي لم تفارق سمعي ليلاً ونهاراً. كنت أسمعها في النهار كصوت بوق مرتفع وبالليل، عندما أخلد إلي النوم كنت أسمعها هامسة رقيقة: "يوجد إله هو في ذاته محبه ويسكب محبته في قلوب المؤمنين به".

وبدأت – بعمل روح الله في قلبي – أشتاق إلي معرفة هذا الإله. وعندما ذهبت منذ شهر لزيارة أبي، كان كل وجداني ينبض بالشوق إلي معرفة ذلك "الإله المحبة". وجدت أبي يجلس في أحد أركان الحديقة، وقد لفّ ذراعه حول شاب صغير السن قد ضُرب بالبرص، ويبدو أنّ حديثاً ودياً كان يجري بينهما، والابتسامة لا تفارق شفتي أبي. واقتربت منهما، فما أن رآني أبي حتى هتف بي في فرحة حقيقية:

♦ *تعال يا بني، تعال واجلس إلي جواري لأحدثك عن الإله العظيم الذي أصبح ربي وإلهي.*

وأخذ أبي يحدثني عن المسيح ابن الله وما فعله من أجلنا على الصليب. كنت مُعدّاً – بعمل روح الله في داخلي – لقبول كل ما سمعته. وفي هدوء سلمت قلبي بالتمام للرب. وفي الحال شعرت بالسلام يملأ قلبي، وأدركت أنني كنت أعمى، ولكن شكراً لله، لقد فتح عينيَّ لأُبصر وأعرف الحق.

* * * *

ما أن انتهى خالي من قصته هذه حتى نظر إلينا ملياً ثم قال:

○ والآن اسمعوا لي فأشرح لكم المسيحية بالتفصيل وأحدثكم عن إلهي المحب وما فعله من أجلنا.

في الواقع – عزيزي القارئ – أنني كنت متشوقاً جداً لسماع بقية الحديث، غير أنني كنت أخاف خوفاً شديداً أن يؤثر فيَّ كلام خالي فأصدقه، ويحدث معي ذات ما حدث مع جلالو. وقلت في نفسي: "*عجباً أنني كنت أخشى أن أقابل الخواجا، فإذا بي أواجه خالي العزيز ليكلمني بنفس الكلام الذي كنت أخشى أن أسمعه*".

هتفت بخالي:

♦ *أرجوك يا خالي لا تحدثني عن إلهك؛ إنني أومن بإلهي*

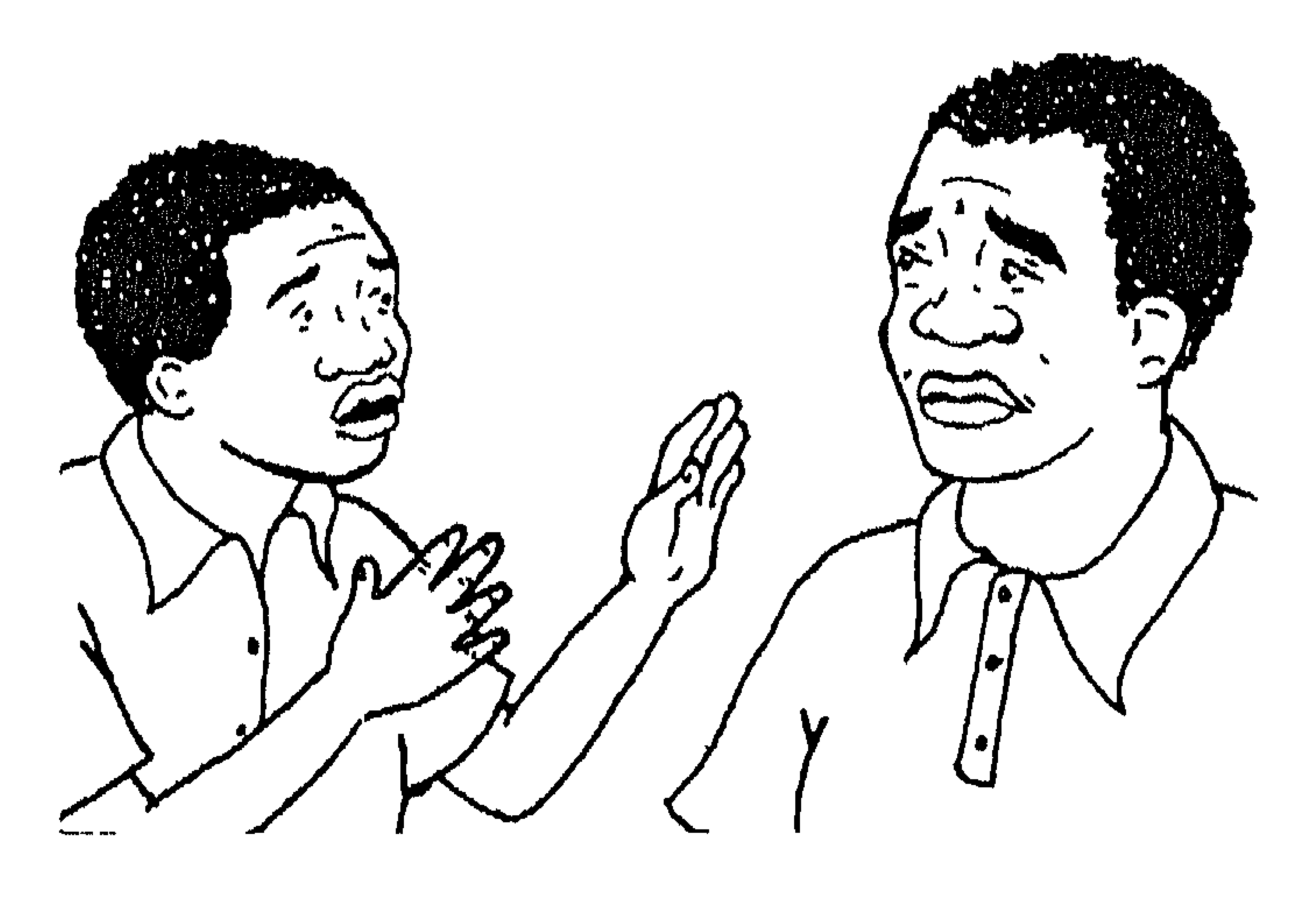
لمبوراث العظيم، وسأظل وفياً له إلي الأبد.

ربت كومي علي كتفي وقال:

○ لقد كنت مثلك يا صديقي، وفياً لإله لا يرى ولا يسمع، ولكن الله فتح عينيّ لأبصر الحق.

أحسست أنّ بداخلي ميلاً شديداً أن أستمع إلي خالي؛ فتولاني الرعب، واعتقدت أنهم يستعملون السحر في التأثير علي الآخرين. فوثبت واقفاً بسرعة وقلت:

♦ *لا، ليس الآن يا خالي. في مرة قادمة سوف أسمعك وأتناقش معك.*



وبهذا القول قفزت واقفاً، فوقفت أمي في الحال وخرجنا سوياً كأننا نهرب من مارد يطاردنا.

نظر إلينا خالي نظرة حزينة، وخبط علي ركبتيه بيده وهزّ رأسه آسفاً وكأنه يتحسر علي فرصة ضاعت عليه.



بينما كنت أعدّ كوباً من الشاي في المطبخ، وأنا غارقٌ في أفكاري وتأملاتي، سمعت صوتاً مألوفاً ومحبوباً يهتف خلفي في مرح:

♦ *"أورانج بتاو؟"**

استدرت بسرعة لأجد أخي المحبوب كوكو، بعد غيبة دامت شهرين بالخرطوم. فقد كان يسافر إلي الخرطوم ليتلقى تعليمه في السنة الدراسية الثالثة لتعليم الكبار بالخرطوم. أخذت أقفز فرحاً وأنا أهتف:

○ أورانج بتاو...

♦ *أورانج بتاو.*

وشعرت أن جبلاً ثقيلاً قد أنزاح عن كاهلي، فمع كوكو أستطيع أن أتحدث بصراحة عن هواجسي، وأكشف له قلبي، وأجد دائماً

---

* كيف حالك يا أخي

ما يطمئنني في ردوده القوية الهادئة.

وإذ لاحظت التعب والإجهاد باديان علي وجهه، أعطيته كوباً من الشاي، وبدأت في إعداد كوبٍ آخر. ومنّيت نفسي بجلسة حبية افتقدتها طويلاً مع أخي الحبيب. عدت إلي أخي لأجد أنجالو جالساً إلي جواره، وقد بدا أن أمراً ذا بال يشغلهما، ولم يكن غيرنا بالمنزل ساعتها. أخذني كوكو في حضنه، فمع إنني كنت قد بلغت التاسعة من عمري إلاّ أن كوكو كان دائماً يدللني ويغمرني بحنانه كما لو كنت طفله الوحيد. كان أنجالو يقول بحماس:

- ♦ *إن الإله لابد أن يعذبه عذاباً مريراً.*
- ○ لا أعلم ولكنه سعيد جداً. وأعتقد أن إلهه هو الذي منحه هذه السعادة.

أجاب أنجالو بغضب مصححاً أقوال أخيه:

- ♦ *إنه الشيطان. إن الشيطان هو الذي منحه هذه السعادة الوهمية.*
- ○ لا أستطيع التحديد بالضبط.

استنتجت من الحديث أنهم يتحدثان عن شخص أعلن مسيحيته حديثاً. فهتفت رغماً عني:

- ♦ *عمن تتحدثان؟*

سكت الاثنان فترة قصيرة. ولكنني عدت فكررت سؤالي:

♦ *من هو الذي تتحدثان عنه؟*

ربت كوكو علي كتفي، وضمني أكثر إليه، وكأنه أراد أن يشددني قبل أن أسمع الإجابة.

○ إنه خالك.

♦ *خالي كنجو؟*

○ لا بل خالك كوناجي.

صمت في دهشة ممتزجة بالحزن. الاثنين؟! الاثنين قد انجرفا وراء تيار المسيحية؟! ألا يكفي أن يكون خالي كنجو مسيحياً؟! يا إلهي كيف تتحمل أمي كل هذا العذاب؟! وشعرت بالخوف يغشاني. إن مصيبة هائلة تزحف نحو عائلاتنا.

قال كوكو بصوته الهادئ الرزين:

○ إننا يجب علينا يا أحبائي أن نعرف كل شيء عن المسيحية ثم نرفضها باختيارنا.

استطعت أن أميّز رائحة التشكك تفوح من إجابات كوكو، فقلت في حزن وخوف حقيقيين، بل وفي توسل شديد:

♦ *كوكو أرجوك... أرجوك لا تستمع إليهما. إني أخاف أن تعرف كل شيء عن المسيحية ثم تقبلها باختيارك. لو قبلت*

المسيحية فأنا سأقتل نفسي، لأني لا أستطيع أن أعيش بدونك، ولا أستطيع أن أتصور أنك يمكن أن تقع فريسة للشيطان، وتتحمل غضب وسخط إلهنا. إنك لا تعرف يا كوكو. لا تعرف شيئاً عن...

ولم أستطع أن أواصل حديثي، فأجهشت بالبكاء وأنا أشعر أن قلبي يتقطع حزناً. أخذني كوكو بين ذراعيه، وحملني علي ركبتيه، ثم أسند رأسي علي صدره، وراح يربت علي ظهري في حنان بالغ وقال:

- أنا لم أقل أبداً أنني قبلت المسيحية. فأنا لا أستطيع أن أتخيل أن الله يأخذ جسداً ويحل بيننا، كما يقولون؛ ويفتدينا بموته علي الصليب. فمهما كانت محبة الله للإنسان، فإنه ليس هناك ما يدعوه لتحمل كل هذا العناء من أجل إنسان خاطئ مولود بالخطية كما يقولون.

ثم قال ساهماً كأنه يحدث نفسه:

- إن الأمر أكبر من تفكيري المحدود، ولا أستطيع أن أستوعبه.

وطلبت من إلهي ألاّ يدعه يستوعبه أبداً. أحطت كوكو بذراعي

وكأنني أخشى أن يأخذه أحد مني وقلت:

♦ كوكو. *لا تذهب إلي الخرطوم عند أخوالي. إني أخاف عليك.*

○ لا تخف يا عزيزي الصغير، إنني أعبد لمبوراث وسأظل أعبده إلي الأبد.

بعد أعوام كثيرة عرفت أن بذور الشك كانت قوية جداً وقتئذ في قلبه، ولكنه كان يشفق عليَّ من مواجهة صدمة عنيفة كهذه.

في تلك الليلة لم أستطع أن أفارق كوكو، فنمت بين أحضانه متشبثاً بثيابه، وكان قلبي يخفق في خوف، وتذكرت جلالو، وتخيلت كوكو يتلوى من السيخ الملتهب فأخذت أبكي وأنا متشبث بجلبابه. أخذ كوكو يمسح دموعي ويضمني أكثر إلي صدره، وسألني بصوت مضطرب:

○ ماذا بك؟ لماذا تبكي يا صغيري؟

♦ *إنني خائف.*

○ وممَّ تخاف؟

♦ *من الشبح.*

○ أي شبح؟

♦ *الشبح الذي يرسله الإله لمبوراث ليعذب الخائنين.*

○ من الذي قال لك هذا الكلام؟

♦ *الصبي كُنده.*

○ اطمئن، إن قصص كُنده كلها أوهام وخيالات، وليس لها أساس

من الصحة.

وأخذ كوكو يطمئنني ويهدئ من روعي حتى غلبني النعاس.

* * * *

في الصباح لم أجد كوكو بجانبي، فوثبت بسرعة، وسألت أمي وقلبي يدق دقات عنيفة:

♦ *أين كوكو يا أمي؟*

○ لقد سافر إلي الخرطوم.

جلست علي الأرض ووضعت رأسي علي ركبتيَّ، وشبكت يديَّ فوق رأسي. لقد شعرت أن كارثة محتمة لابد أن تحلّ علي منزلنا، بل تحل عليّ أنا شخصياً، ولن يمكنني أن أتحملها. كنت أشعر شعوراً قوياً أن كوكو سائرٌ في ذات الطريق التي سلكها أخوالي.

وهكذا جلست واضعاً يديّ فوق رأسي، وكأني أحاول أن أمنع الكارثة من الوقوع فوق رأسي، وكنت أشعر بالدوار يلفني، إلي أن انتبهت علي صوت أنجالو:

○ لماذا تجلس هكذا يا توتو؟

لم أجب علي سؤاله وإنما سألته:

♦ *أين كنت يا أنجالو.*

○ مع كومي.

♦ *وما السبب؟*

○ كان يحدثني عن المسيحية.

خفق قلبي بشدة وسألته بخوف:

♦ *وماذا قلت له؟*

أجاب أنجالو بحماس:

○ أخبرته أنني أعبد لمبوراث وأنني متعصب جداً لديانة آبائي، وموقن يقيناً لا يعتريه شك في عبادة لمبوراث.

شعرت براحة نسبية ثم سألته:

♦ *ماذا قال لك كوكو في حديثة عن أخوالي؟*

○ قال أن أخوالي يؤمنون إيماناً قوياً بالمسيح.

♦ *وما رأيه هو في هذا الأمر؟ هل كان متحمساً ضدهم وضد أفكارهم.*

نظر أنجالو إلي أعلي نحو سقف المنزل، وكأنه يحاول أن يستبين شيئاً، ثم قال بتردد

○ لا أستطيع أن أجزم .. ولكنه قال أن إيمانهم قد غيّر في عاداتهم وتصرفاتهم.

سألت وأنا أتمني أن تكون الإجابة بالإيجاب:

♦ *إلي الأسوأ طبعاً؟*

○ لا. العجب أنه إلي الأفضل!

فعدت أكرر في قلق:

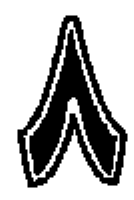
♦ *ولكن ما هو رأي كوكو بالضبط؟*

سكت أنجالو ولم يجد جواباً، ففزعت من صمته وسألته بخوف:

♦ *قل لي ما رأي كوكو؟*

○ إن كوكو شخص عاقل ورزين ولا أعتقد أنهم يؤثرون عليه بسهولة.

لم تكن إجابته شافية ولكنني تمنيت من قلبي أن تكون هي الحقيقة.



بدأنا نتهيأ للرحلة إلي المراعي. وكان معنا في هذه المرة أبناء أختي كالو وكوي. وبعد أن سرنا مسافة طويلة لمدة ساعتين تقريباً، جلسنا جميعنا تحت شجرة وارفة من أشجار الوارا، وبدأنا نستعد لتناول غذاءنا. وكان أنجالو يداعب كالو وكوي، ويخترع لهم الألعاب المسلية، ويشيع البهجة في نفوسنا جميعاً؛ حتى نسيت همومي السابقة وعدت إلي مرحي القديم، وكانت ضحكاتنا تملأ الجو حولنا ويعود إلينا صداها من الجبال البعيدة. ولم أكن أبداً أشعر بطول الرحلة مع أنجالو، فقد كانت رفقته متعة كبيرة لنا جميعاً.

وأثناء تناولنا الغذاء، كنا نلعب بينما يحمل كلٍ منا قربة ماء صغيرة وقطعة من البورج. كنا نجري بين الأشجار ونختبئ خلفها، ثم نصدر أصواتاً حتى نتعرف علي مكان المختبئ. ومازلنا نجري ونلعب حتى فوجئنا باختفاء كالو. لم يكن المكان خطراً، ولكن الغابة التي كنا نمرح

بين أشجارها كان بها أماكن كثيفة يمكن أن تحجب الرؤية.

أخذنا ننادي علي كالو بأعلى أصواتنا. ولكن لم يكن هناك مجيب. ظننا في البداية أنها خدعة منه، ولكننا ما لبثنا أن تأكدنا من عدم وجوده في المحيط الذي نتحرك فيه. أخذ كوي أخوه يبكي بصوت مرتفع، ونحن نطمئنه ونهدئ من روعه. ولكن عندما طالت المدة علينا ولم نعثر له علي أثر، بدأنا نضطرب جداً. ثم أقترح أنجالو أن نجثو علي ركبنا ونصلي إلي الحجر لمبوراث، علّنا نعثر عليه.

ركعت بجوار أنجالو، وشعرت أنني أسمع صوت خالي كنجو يقول: *"إن الحجر لا يسمع ولا يرى"*. وكنت وقتئذ في شديد الاحتياج إلي إله يرى ويسمع. وشعرت بالحيرة، فلم يكن الوقت وقت تعصب لديانة أو لإله معين، وإنما كان المأزق يحتاج إلي أمر واحد فقط "إله يرى ويسمع". ولم أعرف كيف أتصرف فاخترت حلاً وسطاً، فصرخت بصوت مرتفع:

♦ *أيها الإله الذي ترى وتسمع؛ عرفنا مكان كالو الآن وفي هذه اللحظة، حتى أعرف إنك تسمعني.*

هل تصدقني أيها القارئ؟ لقد سمعت في نفس اللحظة صوتاً خلفي يقول:

○ إنني هنا يا خالي.

وثبت واقفاً وقد أخذت الدهشة مني مأخذها، وهتف أنجالو في

تعجب:

♦ *كالو. أين كنت؟ لقد تعبنا في البحث عنك.*

o تعالوا انظروا أين كنت.

ذهبنا مع كالو ونحن لا نفتأ أن نسأله:

♦ *ماذا سنرينا؟! هل هو أمر مخيف؟! هل هو ثعبان كبير؟!*

وفجأة رأينا أمامنا علي الأرض رجلاً أبيضاً نائماً تحت شجرة كبيرة. كان الإعياء والهزال باديان علي وجهه النحيل وتقاطيعه الأوروبية الملامح. سأله كالو:

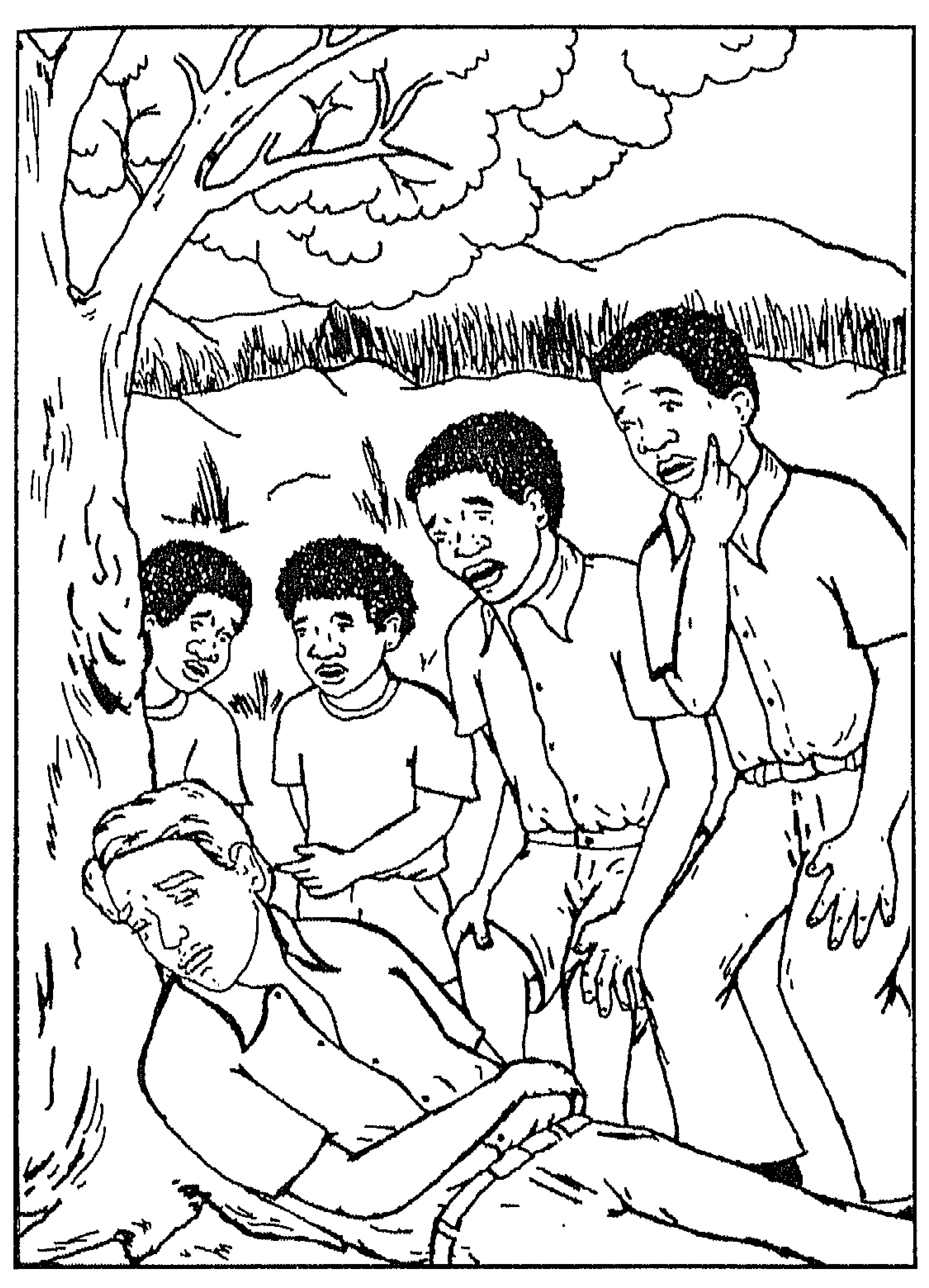
o هل أفقت يا عمي؟

أجاب الرجل بلكنة أجنبية وبصوت واهن:

♦ *نعم. يا صغيري إني أشكرك شكراً جزيلاً.*

فوضح لنا كالو الموقف قائلاً:

o لقد سمعت صوت الرجل يئن أنيناً متقطعاً. فأخذت أبحث في الغابة كلها، وأنا أحاول أن أتتبع الصوت، حتى وصلت إليه، فوجدته علي حافة الموت. وكان معي بالمصادفة قربة الماء، فقربتها من فمه، فأرتشف قليلاً. ومكثت بجواره، وكل دقيقتين كنت أقربها مرة أخرى من فمه يرتشف قليلاً، حتى فتح عينيه جيداً. وشعرت أن الحياة بدأت تدب في جسده، فأسرعت عائداً حتى لا تنشغلوا عليَّ.



رأينا أمامنا علي الأرض رجلاً أبيضاً نائماً تحت شجرة ، والإعياء والهزال باديان علي وجهه النحيل.

أسرع أنجالو فأحضر بعض البورج والزبد والجبن، ثم رفـــع ظـــهر الرجل وأسنده علي جزع الشجرة وأعطاه ليأكل.

نظر إلينا الرجل بعينيه الزرقاويتين، وابتسامة كبيرة علـــي شـــفتيه، وقال بلكنته الأوروبية:

♦ *إن الله أرسلكم إليَّ. لقد طلبت إلـــي الله ليرســـل إلـــيَّ نجـــدة سريعة، حيث أنني كنت علي وشك الموت. وها أنتـــم تـــرون كيف استجاب الله صلاتي.*

سأله أنجالو:

○ ما أسمك يا عمي؟

♦ *أسمي مايكل؛ مايكل لورانس.*

○ وما الذي أتي بك إلي هنا.

♦ *لقد ضللت طريقي. لقد كنت قاصداً لوبا، ولكنني لـــم أعـــرف كيف أخرج من الغابة بعد أن دخلتها.*

○ إن لوبا هي قريتنا. فمن كنت تقصد هناك؟

♦ *كنت أقصد منزل رجل هناك يدعى كـــودي، وكنـــت أريـــد أن أحدّث الناس في لوبا عن خبر مفرح.*

نظرنا إليه في دهشة وتشوق أن نعرف هذا الخبر المفرح، فـــأكمل حديثه:

♦ *كنت أريد أن أختبر الناس أن الله المحب يستطيع أن يمنحهم غفراناً كاملاً إذا قبلوا ذبيحة واحدة قُدمت عنهم؛ وهي ذبيحة الرب يسوع المسيح الذي بذل نفسه فدية عنا.*

شعرنا جميعاً بالامتعاض، وخطر علي بالي أننا لو كنا تركناه يموت لكان أفضل؛ فحياته معناها موت أبدي لأعداد كبيرة من البشر ستتأثر بكلامه وتصدقه. قلت له غاضباً:

○ ألا تعرف يا عمي أنّ لوبا تعبد لمبوراث الإله الحجر؟

أجاب الرجل ببساطة شديدة:

♦ *نعم ولهذا كنت أريد أن أربحها للمسيح.*

شعرت بغيظ شديد ورغبة قوية في أذيته. ولكن أنجالو تدخل قائلاً:

○ لك حق يا عمي. إنني أصدق كلامك، وأنا أُقدّر فيك هذه الروح الطيبة.

قاطعته في غضب:

♦ *أنجالو!*

ولكنه أكمل كلامه مع الرجل قائلاً:

○ إننا نشكرك يا سيدي علي ما تتحمله من عناء في سبيلنا. انظر... أترى هذه الطريق التي بين الأشجار والمعبدة نوعاً ما؟

♦ *نعم أراها جيداً.*

○ إنها المؤدية إلي لوبا، قُم وأذهب فيها، وإلهك يعينك علي مهمتك.

كدت أصحح كلام أنجالو، ولكن نظرة منه أفهمتني قصده فسكت. أخذ الرجل يشكرنا وتمنى لو أتيحت له فرصة لرد جميلنا.

تركنا الرجل يذهب في الطريق العكسية، وعدنا إلي حيث تركنا أمتعتنا وطعامنا. لم أكن مسروراً؛ بالعكس، كنت أشعر بضيق شديد. فمع إنني كنت أكره أن يذهب هذا الرجل إلي لوبا أو يعرف طريقها، لكن تضليلنا له كان أمراً غير مقبول لديٍ.

ولاحظت أن أنجالو ليس علي ما يرام هو الآخر، فقد حاول كالو وكوي أن يمزحا معه كعادتهما، ولكنه كان ساكتاً واجماً. فسألته:

♦ *ماذا بك يا أنجالو؟*

○ إنني متضايق علي الرجل. إن المسافة التي سيسيرها قبل أن يصل إلي مكان مأهول كافية لقتله.

♦ *إنني أيضاً حزين جداً.*

ثم قال أنجالو وهو يهز رأسه في حيرة:

○ ماذا كنا نفعل؟ هل نتركه ليضلل القرية كلها؟

لم أجبه بشيء. وفي الحقيقة لم أكن أعرف أية إجابة هي الأصح. علي أي حال فقد أكملنا سيرنا في وجوم وانقباض إلي المراعي.

ما أن وصلنا مقصدنا حتى أخذ الصبي "كُنده" يهتف بنا في سعادة ظاهرة:

♦ *هيه ذابا – هيه أويا*[*].

وأخذ يقفز ويرقص رقصات خفيفة تعبيراً عن سعادته وترحيبه بنا. غير أنه سكت فجأة وسألني:

♦ *ماذا بكم؟*

○ لا شيء

♦ *لا.. مستحيل إنَّ أنجالو ليس كعادته أبداً. كما أنك أنت أيضاً تخفي عني شيئًا.*

○ لا أبداً على الإطلاق.

لم يهدأ لكُنده بال. وما أن أنفرد بي مرة أخري حتى بادرني بالسؤال:

♦ *هل الكاهن المبجل بخير؟*

○ نعم.

♦ *هل السيدة "كاكا" والدتك بخير؟*

○ نعم.

♦ *وجفوة؟*

---

[*] ذابا، أويا: تعني صديقي

○ بخير.

سكت كُنده، ولكني في الواقع كنت أريد أن أفضي إليه بما في نفسي، فقلت:

○ لقد ضلّلنا رجلاً أجنبياً عن طريقه إلي لوبا.

سألني باندهاش واستنكار:

♦ *لماذا؟*

○ لأنه كان يقصد القرية ليقنع أهلها بقبول المسيحية.

تنهد كُنده بارتياح ورفع يديه شكراً للإله، ثم نظر إليَّ مبتسماً وهو يقول مربتاً علي كتفي:

♦ *عوجه كافاندين*[*]. *اطمئن يا صديقي إن إلهنا هو الذي أوحي إليكم بتضليله.*

هتفت بانفعال:

○ هل أنت متأكد؟

♦ *كل التأكيد.*

أراحني كلامه كثيراً، فرُحت أنقله إلي أنجالو، ويبدو أنه كان له تأثير كالسحر عليه، فلم يلبث أن قام من مكانه فجأة وبدأ يغني بلغة

---

[*] لا توجد مشكلة

الرطانة وهو يردد ضاحكاً:

○ عوجة كافندين... عوجة كافندين

وأخذ يقفز علي الحشيش الأخضر، ويداعب كالو وكوي ويمـــلأ الجــو بضحكاته.



تكررت زيارتنا للمراعي مع أبناء أختي. وذات يوم عند عودتنا من المراعي إلي منزلنا في لوبا، لم نجد أحداً بالمنزل سوى أختي كوجي التي استقبلتنا في بِشر وسرور، وأخذت تحتضن ولديها في حنان بالغ .

قبل أن تنقضي ساعة، علي وصولنا سمعت صوت كومي صديقي يناديني. فخرجت مسرعاً إذ كنت في اشتياق شديد لرؤيته. وإني لأتذكر ذلك اليوم جيداً. كان ذلك في أواخر عام ١٩٧٠. وكنا قد عدنا من المراعي لأن أنجالو كان سيبدأ عامه الدراسي الجديد بعد يومين.

خرجت لرؤية كومي، فدعاني إلي منزله، وألحّ عليَّ قائلاً إن أمه تريد أن تراني. بعد دخولي بمدة قصيرة جاءت والدة كومي بكوب من الشاي فقدمته لي وجلست بجواري.

لم يكن كومي طبيعياً تماماً في ذلك اليوم وشعرت أن الجو العام

حولي لا يدعو إلي الراحة.

سألتني والدة كومي:

♦ *هل رأيت أباك وأمك بعد عودتك من المراعي؟*

○ لا. إنهما في الحقل.

سكت الاثنان قليلاً، فخشيت أن يكون في الأمر سوءاً، فسألت بوجل:

○ أليسا في الحقل؟ هذا ما قالته لي أختي كوجي.

ردت الوالدة وهي ساهمة:

♦ *نعم. نعم إنهما في الحقل.*

ثم سكتت قليلاً وقالت:

♦ *لقد ذهب كودي لرؤيتهما.*

سألت باندهاش وقد بدأت أتوتر فعلاً:

○ لماذا؟ إن عمي لم يذهب أبداً لرؤيتهما.

♦ *نعم. لكنه ذهب اليوم.*

○ إن أبي لا يصافح عمي كودي منذ أعلن مسيحيته.

♦ *نعم. أنا أعلم.*

سألت بإلحاح:

○ فلماذا ذهب إليه إذاً؟ هل هناك أمر خطير؟

أجابت بتردد:

♦ *لا ليس هناك أمر خطير؛ وإنما خبر يجب أن يعرفه أبوك وتعرفوه أنتم أيضاً.*

وضع كومي يده علي كتفي وقال مصححاً قول أمه:

إنه فعلاً أمر خطير يا صديقي؛ لذلك يجب أن تعرفه.

صرخت فجأة بكل قوتي وأنا أقوم من علي المقعد:

○ هل أصاب كوكو مكروه؟ هل مات؟

وأمسكت يديّ برأسي وأنا أصرخ:

○ أخبروني... أخبروني.

أسرع كومي وأمه يجيبانني:

♦ *لا.. لا، لم يحدث له أي مكروه. إنه بخير تماماً.. إنه في أتم صحة وعافية.*

جلست مرة أخرى وأنا أتنفس الصعداء. ثم خطر علي بالي فكر آخر مخيف، فهتفت بارتعاب:

○ هل أعلن مسيحيته؟

ولما سكتوا ولم يجيبوا لم أكرر سؤالي، فقد كان الصمت أبلغ من أية إجابة. ولم أدرِ بمن حولي، فأخذت أشدّ شعري بعنف وأضرب

رأسي بيديّ في حالة هستيرية، وأنا أصرخ في جنون:

o كوكو.. لماذا يا كوكو؟ لماذا يا أخي الحبيب؟

وهنا – عزيزي القارئ – أحب أن أوضح موقفي الحقيقي من الديانة الوثنية. فأنا لم أكن متشبثاً بالديانة الوثنية عن اقتناع، وإنما كنت أخشى العذاب المرير الذي قد يصيبني لو خنت الإله؛ على عكس أنجالو الذي كانت الديانة الوثنية تجري في دمائه.

أخذ كومي ووالدته يهدئانني بغير جدوى. وخرجت مسرعاً أبحث عن أنجالو لأخبره بالأمر المحزن. لم يكن غيره بالمنزل، لأن أختي كانت قد أخذت ولديها وذهبت إلي منزلها القريب.

لم أعرف كيف أمهّد للخبر وإنما قلت باندفاع:

o أنجالو لقد أعلن كوكو مسيحيته.

قفز أنجالو من مكانه كأنما لسعه عقرب، واتسعت عيناه في خوف واندهاش.

♦ *ماذا؟ ماذا تقول؟ كوكو؟ كيف؟ لا يمكن. إن هذا مستحيل.*

لا أستطيع أن أصف لك أيها القارئ مقدار حزننا وخوفنا. لقد ظللنا نبكي سوياً وقلبانا يتمزقان تمزقاً. وقال أنجالو وصوته يتقطع بالبكاء:

♦ *لقد شعرت ببذور الشك في قلبه حين كان يكلمني عن أخوالي.*

كان أنجالو يبكي بشدة، أما أنا فقد أصابتني حالة انهيار عصبي،



فكنت أصرخ في فزع وأشدّ رأسي وانتف شعري؛ فقد كنت أدرك أن أمراً كهذا قد يستدعي قتله، حتى لا ينصب الغضب علي القبيلة كلها، ذلك لأنه ليس شخصاً عادياً وإنما هو ابن الكاهن المعظم، ولو لم يقتله أبي لأمرت القبيلة كلها بقتله.

ظللنا هكذا نعاني الخوف والحزن بضعة ساعات. ثم سمعنا أصواتاً كثيرة ومختلفة خارج المنزل، فقمت لأفتح بقلب متثاقل، وإذ بي أجد أبي

يقف خارج الباب يمسكه رجلان من القبيلة من اليمين ومن اليسار، وقد بدا أكبر من عمره بعشرة سنوات وقد أطرق رأسه إلي الأرض.

دخلت الجماعة كلها، ودخلت أمي وهي منكسة الرأس هي الأخرى، وظل الجميع ساكتين بعض الوقت. ثم قال أبي بصوتٍ خفيض:

♦ *سأقتله وأقتل نفسي.*

أجاب أحد الرجال:

○ وما ذنبك أنت؟ أقتله هو فقط.

هزّ أبي رأسه في أسى وقال:

♦ *بل سأقتل نفسي أيضاً.*

قال أحدهم:

○ إنك لم تفعل شراً فلماذا تقتل نفسك؟

وردّ آخر:

بل يقتله هو وحده، فإن كان لمبوراث العظيم لا يرضى بالنجاسة في وسطنا، لكنه إله عادل لا يقبل أن يقتل شخصاً نفسه ظلماً.

سكت الجميع فترة، كنت لا أسمع فيها سوى شهقات أمي المتقطعة، وصرخات جفوه المستمرة التي لا أدري إن كانت بسبب جوع أو عطش أو خوف، فلم يكن فينا من هو في حال تسمح له

بملاطفتها أو العناية بها.

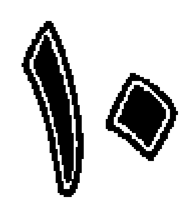
نظرت إلي أنجالو فوجدته وقد أنزوي في ركن الحجـــرة واضعــاً رأسه علي ركبتيه لا يرفع رأسه أبداً، أما أنا فقد أخذت أعضّ ذراعـــي في حسرة حتى سال منها الدم.

أخذ أبي يهز رأسه في أذى وهو يردد:

♦ *بل سأقتله وأقتل نفسي، أنا لا أســتطيع أن أقتلـــه ثــم أعيـــش، ولا أستطيع أن أتركه يعيش مسيحياً.*

ظل الرجال مع أبي فترة من الوقت، لم أسمع فيها كلمـــة مواســـاة واحدة، بل كان الجميع يصبون اللعنات علي الإرســـاليات التبشــيرية، ويؤيدون فكرة قتل كوكو لئلا يصيب القبيلة كلها أذى بسببه.

وظللت كاتماً غيظي وحزني حتى خرجوا، فأجهشت بالبكاء رغمـــاً عني، وإذ بأنجالو يبكي بمرارة هو الآخر. ولم يستطع أبي ولا أمـــي، أمام بكائنا، أن يضبطا نفسيهما، فظللنا نبكي معاً حتى تعبنـــا جميعنـــا من البكاء.



مرت الأيام علينا ثقيلة، بطيئة حزينة، وفقد أنجالو مرحه تماماً وفقدنا جميعنا شهيتنا للطعام. كانت صورة أخي الحبيب ماثلة أمامي باستمرار، أتحدث إليه وأعاتبه، وأعانقه وأتشبث به لئلا ينتزعوه مني ليقتلوه. ولا أتذكر يوماً من هذه الأيام نعست فيه أجفاني إلا وهي مبتلة بالدموع.

وفي ذات يوم، بعد مرور شهر أو أكثر على ارتداد كوكو عن الوثنية، وكان ذلك في بداية عام ١٩٧١، حدث أن كنت أنا وأنجالو بالبيت مع جفوه، وكان أبي وأمي في الحقل. سمعت طرقاً على الباب، فقمت متثاقلاً لأفتح وأنا أظن أنه ربما يكون كومي صديقي هو الطارق؛ فإذا بي أجد أمامي أخي الحبيب كوكو!

تعلقت بكوكو وأنا أوسعه تقبيلاً، ولم أدع فرصة لأنجالو أن يعانقه أو يقبله؛ فقد كنت في غاية الشوق واللهفة على أخي الذي حكم الجميع بقتله.

جلسنا جميعاً علي الحصر، وجلست أنا في حضن كوكو كعادتي؛

ولكن من العجب أن خيّم علينا صمت ثقيل، فلم يستطع أحدٌ منا أن يبدأ الحديث.

ثم قال كوكو:

♦ *ما بالكم ساكتون؟*

لم نجب بشيء، فلم يكن أحدٌ منا يعرف كيف يبدأ الحديث. ثم أملت أنا رأسه نحوي وسألته هامساً:

○ هل حقاً صرت مسيحياً؟

تحيرّ كوكو في اختيار إجابته، ثم ربتَ علي خدي بلطف وقال:

♦ *سوف أحكي لك كل شيء يا صغيري، لكن ليس الآن.*

ومع أنني كنت متأكداً من موقفه، غير أن إجابته زادت من انقباض قلبي، لأنها كانت تأكيداً صريحاً لموقفه.

لم نستطع أن نتحدث في أي أمر آخر حتى عاد أبي وأمي من الحقل ومعهما عمي الذي يساعدهما في الزراعة. ما أن رأت أمي ابنها أمامها حتى احتضنته في شوق ولهفة. أما أبي وعمي فلم يصافحاه، وإنما ابتدره أبي بالقول:

○ كيف الحال؟

♦ *بخير يا أبي.*

ثم بعد فترة صمت وجيزة سأله أبي:

○ هل صحيح ذلك الخبر الذي سمعته عن اعتناقك المسيحية؟

وازدادت سرعة أنفاسي وأنا أسمع الإجابة من فم كوكو.

♦ *نعم يا أبي.*

○ وتركت ديانة آبائك؟

♦ *لأنـي عرفت الله؛ إله الآلهة، فـي المسيحية.*

قال أبي وهو يتذرع بالصبر:

○ وكيف عرفت أن إلهك هو إله الآلهة؟

♦ *لأن روحه الساكن فيّ يشهد لـي بهذا.*

سأله أبي في حدة وقد بدأ يفقد السيطرة علي أعصابه:

○ وكيف عرفت أنّ روحه يسكن فيك؟

♦ *ذلك ما لا أستطيع أن أشرحه لك، لأنه أمرٌ لم تختبره أنت، ولكنه يقين عندي كيقيني بمثولي الآن أمامك.*

صرخ أبي وقد فاض به الكيل تماماً:

○ إنك تهذي يا كوكو، ألا تعلم أن القبيلة قد حكمت بموتك؟

♦ *مهما قضت به القبيلة، أو تقضي به أنت عليَّ؛ فلن أرجع عن إيماني بالمسيح.*

قام أبي في انفعال شديد، وهمّ بضربه، لولا أن عمي تدخل بسرعة، وأمسك كوكو فأخرجه خارج المنزل، بينما بدأ بكاؤنا يعلو بعد أن كنا نعمل كل جهدنا لنكتمه في صدورنا.

عاد عمي إلي البيت بعد قليل، فسألته أمي بين دموعها وشهقاتها:



أين ذهب كوكو؟

أجاب عمي وهو يعود إلي مكانه علي الحصر:

○ إلي منزل كودي.

لم يستطع أبي أن يضبط نفسه، فبدأ يبكي بصوت مسموع كطفل صغير، وهو يردد في أسي:

♦ *سأقتله وأقتل نفسي.*

أجابه عمي:

○ لا تقتله يا أخي، وإنما اطرده من منزلك ومن القرية كلها، فالإله لا يهمه وجود أشخاص لا يعبدونه في الأماكن البعيدة

عن عبادة الوثن، فالعالم مملوء بالبشر الذين لا يعبدونه، وهو لا يضرهم طالما هم خارج القبيلة. اطرده فيرضى الإله علينا ولا يصيبنا بأذى، ولا تخسر نفسه ونفسك أيضاً.

رفع أبي رأسه، وكأن نوراً من الأمل أشرق فجأة عليه، فقال:

♦ *إذا كان هذا يرضي الإله فسأطرده بلا تردد.*

أجاب عمي بتأكيد:

o قطعاً سيرضيه. فماذا يعني الإله العظيم لمبوراث من شخص مسيحي خارج القبيلة؟ إن هذا لا يعنيه في شيء.

قام أبي من مكانه، وكأن روحه رُدت فيه، ثم قال لعمي:

♦ *اذهب إليه وأخبره ألا يدخل بيتي، وألا تطأ قدماه أرض منزلي أو يستظل بسقفه إلي الأبد، بل يذهب حيث يشاء خارج لوبا.*

خرج عمي للتو، ولم ينطق واحد فينا بكلمة، وأطبق علينا صمت حزين إلاّ من زفرات مكتومة تنطلق مع تمزقات قلوبنا.

عاد عمي بعد فترة قصيرة وكان وجهه ممتقعاً حزيناً، ثم قال بصوت متهدج:

o غداً صباحاً سيترك كوكو لوبا إلي الأبد.

* * * *

في تلك الليلة لم أنم حتى الصباح. كنت لا أستطيع تحمل الافتراق عن كوكو، خاصة أنه لا يفصلني عنه سوى جدار غير

سميك بين منزلنا ومنزل كودي؛ ولا أعلم إن كان سيقدّر لـــي أن أراه ثانية أم لا. لم استطع أن أستلقي علي الفراش، فظللت جالساً مفتـــوح العينين ودقات قلبي أسمعها بأذني. حاولت أن أهرب فـــي منتصـف الليل لأذهب إلي بيت كودي، ولكن المزلاج الكبـــير أحـدث صوتـاً مزعجاً. فاستدرت عائداً إلي فراشي بسرعة لئلا يسمعني أحـد. مـا إن استدرت حتى وجدت أبي يقف أمامي وعيناه حمراوتان من كـثرة السهر. حاولت أن أختفي من وجهه وأهرب إلي حجرتي، غـير أنـه اعترض طريقي وأخذني بين ذراعيه في حنان وقال:

- *توتو.. نَم يا حبيبي ولا تخف علي كوكو، فلــن يصيبـه شـر، لا مني ولا من القبيلة، وفي الصباح سأتركك تودعه.*

لم أجب من كثرة حزني ولكنني شعرت بامتنان لأبي أن يمنحنـــي فرصة كهذه.

مع ابتلاج الصبح سمعت صوت المزلاج فجريت في الحال خـارج الغرفة. وجدت أمي تفتح الباب لتخرج، فخرجت معها للتو. ويبـــدو أن أنجالو سمع هو الآخر صوت المزلاج، بل يبدو أن أحداً منا لم ينـم طوال الليل، وخرجنا جميعنا إلي بيت كودي.

في بيت كودي ودّعنا كوكو. ولا أستطيع أن أصف لك مشـاعرنا وعواطفنا في تلك المناسبة، بل إنني لست بحاجـــة لأن أصفـها لـك، فأنت تستطيع – عزيزي القارئ – أن تتخيل الموقف، ومـا يسـتدعيه من دموع وآهات وأحزان تكسر قلب اعتي القساة وأجفاهم.

١١

مرت الحياة علينا ثقيلة مهمومة. حتى أنجالو لم يعـد مرحـاً أو طرباً كعادته. ولا أتذكر أننا – ولمدة عام تقريباً – تمتعنـا بفكاهـات أنجالو أو صدرت منا ضحكات خالصة من القلب، بل كـانت هنـاك دائماً غيمه ثقيلة سوداء تظلل منزلنا وتمنع عنا الشمس وجمال نورهـا. وانقسمت حياتنا بين أيام المنزل وأيام المراعي طوال هذا الوقت.

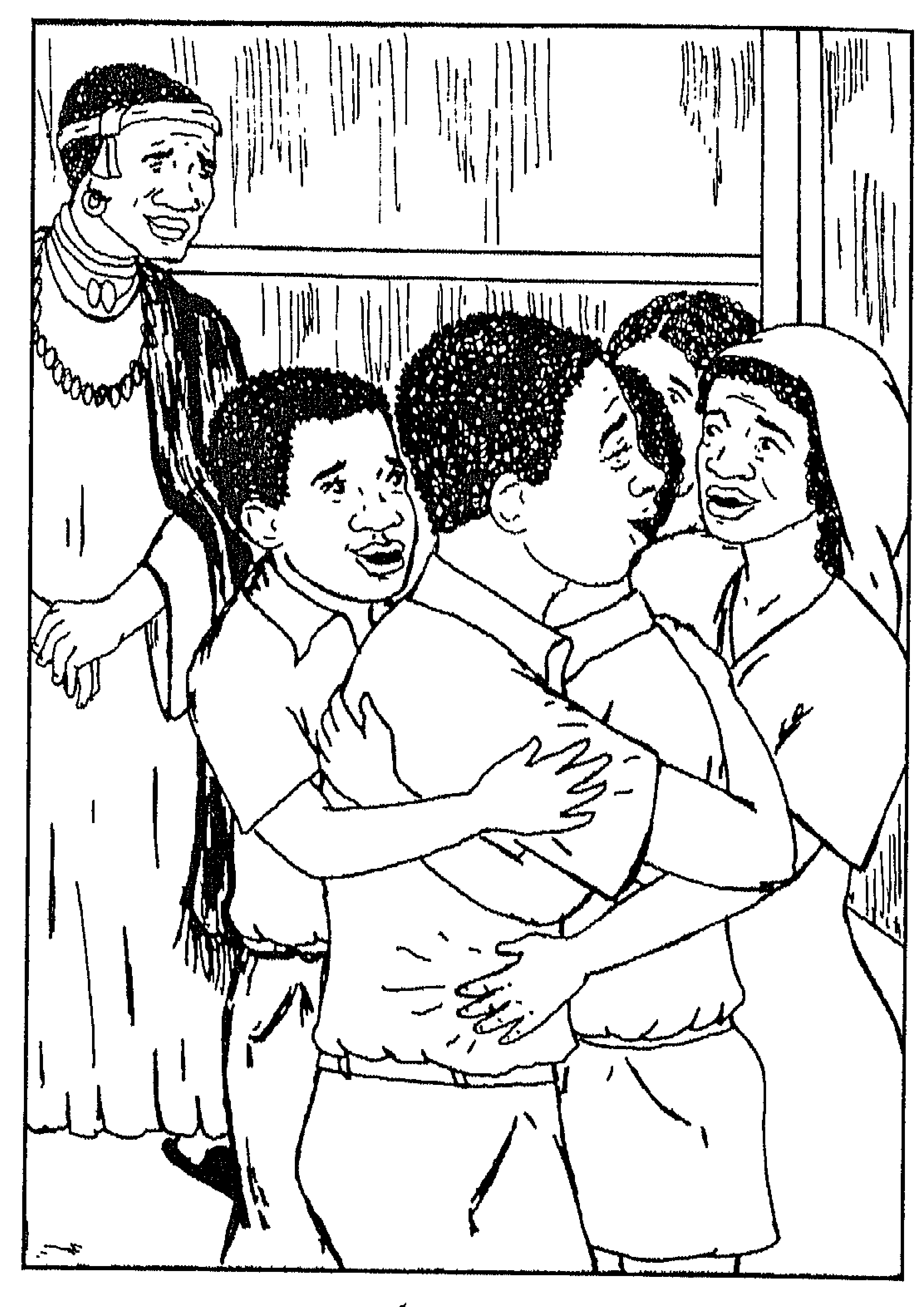
وذات يوم في أواخر عام ١٩٧١، أوينا إلي الفراش متأخرين فـي تلك الليلة، إذ كانت جفوه تعاني من نزلة شعبية حادة، وكنت قلقاً جـداً عليها فلم استطع أن أنام، تذكرت كوكو وكيف كان ينجدنا في ظـروف المرض باستدعاء الطبيب وشراء الدواء. وبكيت بمرارة فـي سـري علي أخي الحبيب الذي قد لا أراه أبداً، وشعرت بالتعاسة والبؤس فـي أرذل صورهما، وتمنيت لو لم يكن كوكو قد عرف شيئاً عن المسـيحية

طيلة حياته، بل تمنيت من أعماقي لو انتهت حياتي في تلــــك الليلــة، وانتهي معها كل الألم والحزن المرير.

وبينما أنا في أفكاري التي أتعبتني، سمعت طرقـــاً خفيفــاً جـداً. اعتدلت علي الفراش وجلست بسرعة وأنا أرهف الســـمع، ولا أعلــم لماذا ازدادت فجأة ضربات قلبي عنفـــاً وســرعة. ســمعت صــوت الطرقات أكثر وضوحاً، وازدادت معـــها ضربــات قلبــي وســرعة أنفاسي. لقد خالجني يقين قوي بأنه كوكو. ولم أســتطع أن أتحــرك من مكاني، فقد أذهلتني المفاجأة، ولكن مع عودة الطرقات مرة أخــرى قمت مسرعاً وفتحت الباب لأجد أخي الحبيب العزيز أمامي.

ارتميت في حضن كوكو، ولا أعلم ماذا كنت أقول أو أعمل، فقــد كنت أشعر أنني في حلم أو خيال. أخـــذت أقبّلــه وأبكــي وأضحــك وأعانقه وأهتف منادياً علي أبي وأمي وأنجالو، وما هي إلا ثوانٍ حتــى كان الجميع يقّبلونه ويعانقونه... إلاَّ أبي. فمع أن أبـــي كــان شــديد التعلق بكوكو، وأعلم يقيناً أنه كان يحتل المكانة الأولي في قلب ابنـــه، إلاّ أن مصافحته كان أمراً غير واجب حيث أنه قد خان ديانة آبائه.

وقف أبي بعيداً بعض الشيء، والدموع تترقرق في عينيـــه، وهــو يضم يديه حيناً إلي صدره، ثم يفركهما، ثم يرخيهما في يأس، فيعـــود فيضمهما إلي صدره في عصبية ظاهرة. وهكذا كـــان واضحــاً كــم يصارع هذا الرجل أحزاناً هائلة في قلبه.



وما هي إلا ثوانٍ حتى كان الجميع يقبّلونه ويعانقونه...

ثم أضطر أبي إلي الكلام فسأل كوكو:

♦ *هل رجعت يا بنيّ لأنك عدت إلى ديانة أبائك؟*

أجاب كوكو في هدوء وثقة:

○ لا يا أبي؛ إنني مسيحي، وسأظل مسيحياً إلي الأبد.

سادت فترة صمت مشحونة بالتوتر والقلق، ثم استجمع أبـــي قـــواه وقال في حزم:

♦ *إذاً عليك أن تخرج الآن من بيتـي.*

صدرت منا شهقات وصرخات مكتومة، نحاول منعها بأيدينا فـــوق أفواهنا، إذ هالنا أن نسمع قراراً مثل هذا من أبي، وفي هذا الوقت مـــن الليل.

ثم قالت أمي بين دموعها:

○ أين سيذهب؟

أجاب أبي:

♦ *لا أعلم؛ لكنه لا يستطيع أن يبيت بالمنزل علــــي أي حـــال. إن جفوه مريضة، ولو مكث كوكو بالمنزل فلابد أنها سوف تموت.*

لم أستطع أن أتحكم في تصرفاتي، فـــاقتربت أكـــثر مـــن أخـــي، وتشبثت بخصره بيدي اليسرى، وأمسكت بيده وضممتها إلي صـــدري.

ربت كوكو علي وجهي في حنان ثم قال:

o أستأذنك يا أبي أن تدع توتو يذهب معي إلي بيت كـــودي هــذه الليلة، وغداً صباحاً سأترك لوبا.

سمعت صوت نحنحة من أنجالو؛ فأسرع كوكو يقول:

o وأيضاً دع أنجالو يذهب معنا.

نظرت نحو أبي، فوجدت دمعة كبيرة تنحدر علي وجهـــه؛ وقـــال بصوت متهدج:

♦ *ليكن لك ما تريد.*

ثم سمعته يحدث نفسه بصوت أقرب إلـــي الـــهمس، حتـــى أننـــي استطعت أن أميزّ العبارة بصعوبة:

o إني سأنزل بحزني إلي القبر قريباً.

قام كوكو وقبّل أمي التي كانت تبكي بشدة، فقالت له:

o سأقوم الآن لأعمل لك فطيراً وكحكاً، وأجهز لك ما يلزمك فـ سفرك، وغداً صباحاً سأذهب إلي بيت كودي لتوديعك.

١٢

علي فراش ممدود فوق الحصر في بيت جارنـــا كــودي، وتحــت الغطاء الثقيل، ظللنا نستمع إلي كوكو حتى الصباح.

أخذني كوكو في حضنه، بينما جلس كومي وأنجـــالو متجــاورين تحت الغطاء، وقد أسندنا رؤوسنا علـــي الوســادات القائمــة بجــوار الحائط. وقال كومي:

♦ *إيليا؛ قصَّ لنا القصة من بدايتها.*

نظرنا باندهاش إلي كومي؛ فقال موضحاً:

♦ *أقصد كوكو. ألا تعرفون أن اسمه الجديد هو "إيليا"؟*

قال كوكو:

○ نعم. لقد غيّرت اسمي إلي إيليا، وهو بطل من أبطال الكتـــاب المقدس. أما عن قصتي فهي تبدأ في أول عام ١٩٧٠، عندمـــا

التحقت بالمصنع الذي يعمل به أخوالي كنجو وكوناجي.

منذ أن وصلت إلي هناك حتى شعرت أن تغيراً عجيباً قد حدث مع أخوالي، فقبل أن يحدثاني عن المسيحية وعن الرب يسوع المسيح، كنت قد لاحظت الفرق الواضح في حياتيهما.

كان يسكن بجوارهما رجل سيئ الخلق يدعي الشيخ "بريمه"، وكان الشيخ برمه يتلذذ باستفزازهما، وقد شهدت عدة معارك بينه وبينهما في المرات السابقة؛ ولكن في هذه المرة وجدتهما يقابلان كل شتائمه بابتسامة هادئة.

حاولا أن يكلماني عن المسيحية، ولكنني رفضت بإصرار أن أستمع إليهما. وطلبت منهما ألاَّ يكررا المحاولة معي أبداً، وأصررت علي أن أخذ وعداً منهما بهذا؛ فوعداني.

غير أن كان هناك أمران هامان يسيطران علي تفكيري ولا أستطيع أن أتخلص منهما: الأول؛ كيف غيرت المسيحية في طباع وأخلاق أخوالي إلي هذا الحد. أما الأمر الثاني؛ والذي كان له تأثير كبير عليَّ، هو صلواتهما، فإن كان أدهشني سلوكهما الهادئ الوديع، غير أن ما ملأني عجباً أو في الحقيقة تحيراً هو صلواتهما.

كانا قد تعودا أن يقضيا فرصة صلاة طويلة في حجرة الاستقبال، وهي حجرة صغيرة بها أريكة وكرسيان. فكانا يضعان الوسائد علي الأرض ويظلا يصليان لمدة ساعات.

كانا قد صدقا في وعدهما بعدم محادثتي في أمر الإيمان بالمسيح، لكنني – رغماً عني – كنت أتنصت لأسمع صلواتهما. حقاً لقد كانت صلوات عجيبة. كان ملؤها السعادة والفرح والابتهاج، كنت أشعر معانيها وصدق أقوالها. كانا يشكران علي الفداء وعلي الحياة الأبدية وعلي السلام الذي يفوق كل عقل.

كنت أحياناً أتنصت لأسمع، وفي أحيان أخري كنت أخاف علي نفسي من تأثير صلواتهما عليّ؛ فأسد أذني وأظل أردد عبارات المديح للإله لمبوراث حتى يحفظني من هذه التأثيرات الجديدة.

قاطعه كومي فجأة:

♦ *إيليا قص عليهم قصة احتياجكم للمال.*

ابتسم كوكو وقال:

○ نعم. لقد كان لتلك الحادثة تأثير كبير عليّ. كان ذلك بعد عودتي من زيارتي إلي لوبا. وبالمناسبة، فعند حضوري إلي لوبا في منتصف عام ١٩٧٠، كنت قد بدأت أتشكك جداً في الديانة الوثنية، فقد رأيت بعيني ما يمكن أن تحدثه المسيحية في النفس، والذي لا يمكن لأية ديانة أن تحدثه. لذلك فقد كنت أشعر أن الإيمان بالمسيح هو شيء آخر، يختلف كل الاختلاف عن الديانة الوثنية التي لا تستطيع أن تحدث فرحاً أو سلاماً أو يقيناً أو نصرة أو أية فضائل أخري.

أعود إلي الحادثة التي ذكرها كومي، وكنت قد سردتها عليه عندما عرف والدي باعتناقي المسيحية فطردني من المنزل. تأخر المصنع في دفع رواتبنا لمدة شهرين؛ وللأسف كنا نحن الثلاثة؛ أخوالي وأنا، نعمل في مصنع واحد، فإذا استلمنا رواتبنا كان المال يزيد عن حاجتنا، وإذا تأخرنا في استلامها كان ذلك يؤثر علينا جميعاً في وقت واحد.

قبيل استلام رواتبنا بأسبوع واحد، نفد المال الذي بين يدينا تماماً، ولم نجد قرشاً واحداً مع أحد منا. ظللنا نبحث في معاطفنا وسراويلنا، علّنا نجد ما نشتري به غذاءنا، ولكن عبثاً حاولنا، فلم نجد قرشاً واحداً بالمنزل.

كنت متوتراً جداً، غير أن أخوالي كنجو وكوناجي كانا في غاية الهدوء. وقالا لي:

♦ *أتظن يا كوكو أن إلهنا لا يعلم احتياجنا؟*

قلت بتهكم:

○ إذا كان يعلم احتياجنا فلماذا لا يزودنا به؟

♦ *لأنه يريدنا أن نلتجئ إليه ونثق فيه، بل نضع كل ثقتنا فيه؛ وهو لن يتأخر أبداً عن تلبية احتياجاتنا. وحاشا له أن يتركنا نقترض من هذا أو ذاك، بل هو قادر أن يزودنا بنفسه بكل ما نحتاجه.*

شعرت أن هذا غرور وانتفاخ باطل، ووجدتها فرصة سانحة

لإحراجهما وإظهار بطلان ديانتهما. قلت باستخفاف:

o ومتى سيزودنا إلهكم باحتياجاتنا؟!

قال خالي كنجو في هدوء:

♦ *سترى يا عزيزي.*

قام أخوالي كنجو وكوناجي، ودخلا حجرة الاستقبال وأغلقا البــاب. اقتربت من الباب وتنصت، فسمعت صلواتهما جيداً. كانا يصليان مــن أجلي. كانا يؤكدان أنهما وإن كانا يحتاجان فعلاً للخبز، لكنــهما فــي المقام الأول يطلبان أن يتمجد الرب في إظهار قدرتــه لــي. كــانت صلواتهما قوية، غير أنني كنت في يقيــن تــام أنــها لــن تســتجاب، وشعرت بالاستخفاف بهما وبصلواتهما وبثقتهما العمياء في إلههما.

وفجأة، سمعت طرقاً عنيفاً علي الباب، أسرعت إلي الباب ففتحتــه. هل تتخيلون ماذا وجدت أمامي؟

أجبت بانفعال:

♦ *خبزاً؟*

ضحك كوكو وقال:

o وجدت أمامي أحد الحمالين؛ كان رجلاً طويلاً يرتــدي معطفــاً علي سرواله ويحمل جوالاً علي كتفه. أنزل الرجــل الجــوال من كتفه وسألني:

♦ *أليست هذه الشقة رقم ٧؟*

أجبت:

○ نعم. إن الرقم مكتوب علي الباد

♦ *إذاً، فهذا الجوال هو لكم.*

○ من أرسله.

♦ *شخص يدعي "كافي"؛ وقال لي أن أخبر من يستلم الجـــوال أن كافي أحضره له.*

○ ومن هو كافي؟

♦ *لا أدري. لقد كنت واقفاً بجوار المنزل عندما أقترب إليّ شـــاب لا أعرفه، وأعطاني هذا الجوال، وقال لي سلمه للشقة رقـــم ٧، وأبلغ الساكن أن كافي أحضر هذا الجوال.*

○ ألم يذكر لك أسم الشخص المرسل إليه هذا الجوال؟

♦ *لا، لكنه أكد أنه للشقة رقم ٧.*

بينما نحن نتناقش حضر أخوالي، وأعادا علي الرجل نفس الأســئلة التي سألته إياها، وأخذا يتساءلان عمن يكون كافي، ثم قالا له:

○ هل أنت متأكد أنها للشقة رقم ٧؟

بحث الرجل في جيبه عن ورقة صغيرة، أخرجها وقدمها لخـــالي. نظرنا ثلاثتنا في الورقة في وقت واحد، فوجدنا مكتوبـــاً فيـــها بخـــط واضح *"شقة رقم ٧"*.

فتح خالي كنجو الجوال، فوجدنا به خبزاً وجبناً وزبداً وفطيراً.
فقال خالي للرجل بهدوء:

○ شكراً لك يا عمي. لقد أرسلها الله لنا.

نظر الرجل إلي خالي في بلاهة، غير أنه عاد إلي رشده عندما أعطاه خالي رغيفاً من الجوال، فأخذه وقبله ولمس به جبهته، ثم وضعه في جيب سرواله الواسع وانصرف.

كدت أجن من الصدمة العجيبة. ثم بدأت أتشكك في كونها صدفة علي الإطلاق. إنهما يصليان لإله يسمع ويستجيب. وبينما أنا في ذهولي، سمعت صوتهما يرتفع بالشكر والحمد لله علي استجابته الصلاة.



وشعرت أنه أسقط في يدي. ولم أعرف هل أُسَرّ بهذا الإله أم أسخط علي الوثن الذي لم يستجبني أبداً لأنه لا يستطيع أن يسمعني. وشعرت بالحيرة تملأ قلبي وتشل ذهني تماماً.

قاطعت كوكو بغيظ:

♦ *كوكو إن الصدف في حياتنا كثيرة جداً، فكيف تعتمد علي حادثة واحدة كهذه لتغيير دينك؟*

أجابني كوكو وهو يربت علي كتفي:

○ لا يا صغيري. أنا لا أعوّل على هذه أو غيرها، فالذي عمله الله فيَّ أكبر كثيراً مما عمله معي.

ثم أردف:

○ ما علينا... انتظر حتى تسمع بقية القصة.

بعد أسبوع بالضبط استلمنا رواتبنا الجديدة والمتأخرة، وفي عصر ذلك اليوم عينيه طرق بابنا طارق، وعندما فتحنا الباب، وجدنا شاباً طويلاً رقيق الملامح يسأل في تأدب:

♦ *أعذروني إن كنت قد أزعجتكم، ولكن هل تسمحوا لي أن أصحح خطأً قد وقعت فيه منذ أسبوع؟*

أدخله أخوالي إلي حجرة الاستقبال، فدخل وهو ينظر إلي الأرض في خجل ثم قال:

♦ *منذ أسبوع كنت أحمل جوالاً أرسلته أمي إلي خالي برمه.*

قاطعناه جميعاً في اندهاش:

○ الجوال؟ .. جوال الخبز والزبد؟ .. هل أنت كافي؟

♦ *نعم.. نعم. لقد أخطأت فكتبت رقم ٧ بدلاً من ٨. ولأنني كنت قد حضرت من القرية متأخراً، وخشيت أن تفوتني المحاضرة الأولى بالكلية، لذلك فقد سلمت الجوال لأحد الحمالين، وأعطيته ورقة صغيرة برقم الشقة، ثم أوصيت البقال المجاور لمنزلكم أن يراقب الموقف حتى لا يهرب الرجل بالجوال. وأسرعت إلي الكلية.*

ثم أضاف الشاب وهو يمسح جبينه من العرق وقد ازداد خجلاً:

♦ *ولولا أنني أخشى غضب خالي بريمه وثورته لما سألتكم عنه.*

قال خالي كوناجي وهو يقوم من علي الكرسي:

○ انتظر دقيقتين وسأحضره لك يا بني.

وخرج خالي، واشترى نفس الكميات التي كانت بالجوال من البقالة المجاورة، وعاد فوضعها بالجوال وقدمه إلي الشاب.

أخذ الشاب الجوال وهو يكرر عبارات الشكر والاعتذار، ثم خرج إلي بيت خاله بريمه الذي كان ينتظره متحفزاً للمعركة.

سكت كوكو ونظر نحونا وهو يبتسم ثم قال:

○ هل رأيتم كيف يضبط الله توقيته؟ لقد استلمنا الجوال في نفس اليوم الذي نفذت فيه نقودنا، ثم أعدنا الجوال إلي صاحبه في نفس اليوم الذي استلمنا فيه رواتبنا.

لم نستطع التعليق علي هذه القصة، فما كان بوسعنا أن نفعل. غير أن كومي قال بانفعال:

♦ *مجداً لله. إنه يشجعنا حتى نزداد تمسكاً به.*

أعتدل كوكو في جلسته واستكمل حديثه قائلاً:

○ كان الله يتعامل مع نفسي، وظللت فترة أقاوم تأثير الروح القدس الذي كان يجاهد معي. كنت أشعر في داخلي بجوع شديد إلي معرفة الحق، ولكنني في ذات الوقت كنت أخشى الإله لمبوراث جداً. وظللت في حيرة من أمري لمدة طويلة. وكنت كلما أقنعني الروح القدس بقبول المسيح أهرب أو أقاوم. إلي أن طلب مني خالي كوناجي ذات مساء أن أرافقهما إلي الكنيسة. لم يكن هذا متوقعاً من خالي إذ لم يطلب مني طلباً كهذا أبداً. وحتى الآن أنا لا أعرف كيف وافقته.

أخذت أخر مقعد وجلست استمع. كان المتحدث يتكلم بقوة عجيبة. شرح سقوط أبينا آدم وسقوط الجنس البشري، ثم شرح الفداء العظيم الذي عمله الرب يسوع علي الصليب. والرب يسوع هو الله المتجسد. كان هو الله وإنسان معاً ولذلك كان يستطيع بذبيحته الواحدة أن يفتدي

الجنس البشري. ثم شرح كيف أن فداءه يحسب لكل من يؤمن به فقــط. كما كشف لي عن حالتي الخربة بالطبيعة، أو بــالحري كشــف الله لــي حالتي في نور محضره الإلهي، فعرفت كم أنا خــاطئ مســتحق للنــار الأبدية. ثم أشرق الله علي قلبي فوجدت المخلص الذي افتدانــي بدمــه، فصرخت في قلبي دون أن أرفع صوتي: "يا رب أنني أقبلــك مخلصــي وفاديً وإلهي". وقد كنت صادقاً فيما أقول وأعنيه تماماً.

شعرت براحة عجيبة وسلام لم أختبره أبداً. وتدفقت مني كلمــات الشكر والحمد والامتنان، وأنا لا أشعر بمن حولــي. حتــى وجــدت خالي كوناجي ينحني عليّ ويصافحني، فقمت في الحال وعانقتــه فــي فرح حقيقي.

كانت سعادتنا في تلك الليلة لا توصف. ركعنــا ثلاثتنــا بجــوار الأريكة وظللنا نرنم ونهتف ونشكر الرب من أعماق قلوبنا.

ثم أضاف كوكو في صوت ملؤه الإخلاص والحب:

- إنني يا أحبائي أصلي من أجلكم يومياً، وأصلي من أجــل أبــي وأمي، وأنا أثق أن الله سيفتقدكم كما افتقدني، وســيملأ قلوبكــم بذلك السلام العجيب الذي لا أستطيع أن أصفه لكم بلساني.

هل تظن – عزيزي القارئ – أننا فتحنا قلوبنا للــرب بعــد هــذا الحديث الطويل؟ كلا. إنّ هذا لم يحدث، فقد كان خوفي شــديداً مــن الإله لمبوراث، الذي كنت أثق في وجوده ثقة لا يعتريها شــك. كمــا

أن إيمان أنجالو بالإله لمبوراث كان إيماناً وطيداً جداً، حتى أن حديث كوكو لم يصل بنا إلي غايته وإن كان قد ملأ قلوبنا بالحيرة. كان حديثه إلينا كمن يأخذ طفلاً صغيراً لا يعي من أمره شيئاً، ثم يضعه في مفترق طرق، ويطلب منه أن يختار الطريق الصحيح إلي البيت. كنت أشعر أنني تائه، أنني وسط بحر هائج مضطرب ولا أعرف الطريق إلي بر الأمان.

ظللنا – أنجالو وأنا – ساكتين تماماً، بينما تبادل كوكو الحديث مع كومي عن معاملات الرب الطيبة معهما. سمعنا طرقاً علي الباب، فقام كومي ليفتح الباب. كانت أمي تقف بالباب وهي تحمل حقيبة كبيرة من البلاستيك بها كل ما أعدته لكوكو. دخلت أمي، فقام كوكو ليعانقها وهو يقول:

- لم أكن أعلم أن الصبح قد انبلج، لقد تعبتِ طوال الليل من أجلي يا أمي.

كانت أمي متأثرة جداً. أما أنا وأنجالو فقد كنا في حيرة كبيرة من أمرنا. وبينما نحن في حيرتنا، طلب منا كوكو أن نقف بخشوع لكي يصلي. وكأنه أخذنا علي غرة، فانصعنا جميعاً لأمره، فصلي صلاة ملؤها الثقة واليقين في إلهه، مما أضاف مشاعر الإجلال والاحترام من نحوه إلي مشاعر الخوف والحزن عليه ومما زاد من حيرتنا وتشككنا إلي حدٍ بعيد.

١٣

مرَّ عامان كاملان علي زيارة كوكو الأخيرة إلي لوبـــا، ولــم أكــن أرى كوكو إلا نادراً عندما كان يزورني فـــي المراعــي؛ ولذلــك فقــد ازددت اقتراباً من أنجالو، فقد كان الواحد منـــا هــو المتنفــس الوحيــد لأخيه، يشكو إليه أحزانه، ويفضي إليه بما يعتمل فى صدره من شـــكوك وحيرة. وإنني أتذكر هذا الحديث الذي دار يوماً بيني وبين أنجالو:

♦ *أتدري يا توتو؟! إننـي أشعر أن الأرض تنهار تحـــت قدمـــيَّ. أشعر أن فأساً كبيرة تحطم الصخرة التـــي أقــف عليـــها، وإذا استمرت هذه الفأس تعمل في صخرتـي، فســاهوي إلـــي قـــاعٍ لا أعرف قراره.*

شعرت بالإشفاق علي أنجالو، وأردت أن أشجعه، ولكنني اكتشــفت أنني لست أفضل منه حالاً، وأدركت أن ذلـــك التشــبيه الــذي أورده أنجالو ينطبق عليَّ تماماً، فقلت له:

o أما أنا فإنني أغوص فعلاً في الأرض الهابطة مـــن تحتــي... لكن كيف؟ هل يمكن أن يكون أجدادنا علي خطأ؟

♦ *ربما. ولكننـي أتساءل؛ إذا كانوا مخطئين فلماذا تركـــهم الإلـــه الحقيقي علي حالهم ولم يكشف لهم خطئهم؟*

o وإذا كان إلهنا لمبوراث هو الإله الحقيقي فلماذا لا يكشف الحـق لأولئك الذين لا يعبدونه؟

♦ *إنها أسئلة محيرة يا تونو، وأنا أعترف أننـي فقدت الثقة فـي كـل شيء. أحتاج إلي معونة من السماء. أحتاج إلي عمل الله فــي داخلـي. أننـي أشعر أننـي أصبت بالشلل، وما لم يتدخـل الإلــه الحقيقي ليعطيني قوة لأقوم ويقودني بيده لأسير فــي الاتجــاه الصحيح فسأظل هكذا مقيداً مشلولاً غير قــادر علــي اتخــاذ خطوة واحدة في أي اتجاه.*

كانت كلمات أنجالو تصدق عليَّ تماماً، فقط كان هو يمتلـك قــدرة علي التعبير أكثر مني، ولذلك فقد كان يترجم حالتـــه وحــالتي علــي السواء.

* * * *

كانت نوبات السعال تعاود جفوه بين الحين والآخر، وقد شـــخّص الطبيب حالتها علي أنها حساسية بالصدر.

وذات يوم، وكان السعال قد أشتد بها جداً، أخذ أنجالو يبحث بيـــن

زجاجات الأدوية عن زجاجة الحساسية حتى وجدها. وما أن رأته جفوه يمسك بالزجاجة حتى بدأت في الصراخ والعويل، وأخذت تجري هنا وهناك لتختبئ خلف الأثاث البسيط الذي يحتويه منزلنا. أخذت أجري وراءها دون جدوى، غير أن أنجالو طلب مني أن أكف عن الجري وراءها، وراح يعدها بالحلوى والفطير إن هي أخذت الدواء. إلا أن طعم الدواء كان غير مقبول تماماً لديها، فقالت له بلهجتها الطفوليه المتكسرة:

- ♦ *إنك تكذب عليَّ. أنت لن تعطيني حلوى.*
- ○ إذاً انتظري فسأحضر الحلوى حالاً لتريها بعينيك.

ثم وضع الزجاجة علي منضدة قريبة، وتوجه إلي الحجرة ليحضر الحلوى، وفي الحال جرت جفوه نحو الزجاجة ألقت بها علي الأرض بشدة فتهشمت تماماً.

ضحكت في قلبي علي مكرها، ولكنني عقدت حاجبيَّ بشدة وأنا أؤنبها لأظهر لها غضبي علي تصرفها. عاد أنجالو بسرعة، وما أن رأى الزجاجة المتهشمة حتى ثار جداً، وأمسك ذراعها وأخذ يضربها علي ظهر يدها بشدة، حتى تدخلت أنا وانتهرت أنجالو علي تصرفه، وسحبت ذراعها من يده. وتعجبت من انفعال أنجالو الشديد والغير متوقع. أما جفوه فقد تشبثت بي، فحملتها علي ذراعيَّ وهي تبكي بشدة، ليس من ألم الضرب وإنما بسبب ثورة أنجالو الشديدة.



جلس أنجالو علي الأرض وأخفي وجهه بيديه، بينما أخذت أنا أعاتبه علي انفعاله الشديد، غير أنني فوجئت بالدموع تملأ عينيه. سألته باندهاش:

♦ *ماذا يا أنجالو؟ ماذا في الأمر؟ لماذا انفعلت بشدة؟ ولماذا تبكي الآن؟*

قال أنجالو وهو يمسح دموعه:

○ إنك لا تعرف يا توتو. إنني لم أرد أن أخبرك بما نحن فيه.

♦ *ما الذي نحن فيه؟*

o إننا في مأزق شديد. إن أبي ليس لديه ما يكفي لسد رمقنا. لقد سمعته يخبر أمي أن الزراعة هذا العام لن تدر علينا قرشاً واحداً. فكيف يستطيع أن يشتري لجفوه زجاجة دواء أخرى؟

♦ *وما السبب في خسارة المحصول هذه؟*

o لا أعلم لكنني سمعت أمي تبكي ليلة أمس، فأنت تعلم أن موردنا الرئيسي هو الزراعة، وأنا أخشى جداً ألا نجد لجفوه الدواء، إن قلبي يتمزق ألماً حين تعاودها النوبة.

أخذت أفكر في الأمر ملياً. إن أبي وأمي لم يتأخرا يوماً عن الحقل، فما السبب؟

قال أنجالو:

o لابد أن الإله لمبوراث قد غضب علينا إذ رأى الشك يتسلل إلي قلوبنا.

♦ *إن أبي وأمي لم يتشككا أبداً.*

o ألسنا أولادهم؟ إن الغضب يحل علي البيت كله إن لم يكن علي القبيلة كلها.

بينما نحن في حيرتنا سمعنا صوت الباب ينفتح، إذ عاد أبي وأمي من الحقل. ومع أن أمي انهمكت في العمل بالمنزل والاهتمام بجفوه منذ دخولها، إلا أنه كان هناك أمراً هاماً يشغلهما هي وأبي، فلم يتوقفا عن الحديث عنه، ألا وهو احتياجهما الشديد إلي مساعدة كبيرة في

الزراعة، وإلاّ فلن يكون هناك حصاد في ذلك الموسم.

قال أبي وهو يهز رأسه تعجباً وحيرة:

♦ *إنها أول مرة في تاريخ حياتي الطويل مع الزراعة. فلم يحدث أبداً أنني شعرت بعدم قدرتي علي إتمام أعمال الزراعة كهذا الموسم.*

أجابت أمي:

○ إننا لم نقصّر في شيء، ومع ذلك فحاجتنا ماسة إلي مساعدة وإلاّ ستكون خسائرنا فادحة.

♦ *لولا أن أنجالو سينتظم في الدراسة من الغد لكان لنا عوناً في مأزقنا.*

○ وهل نحتاج نحن إلي شخص واحد؟ إننا نحتاج علي الأقل إلي ستة أفراد لإنقاذ الموقف.

أطرق أبي في حزن. فمع أننا كنا نمتلك كثيراً من الأبقار إلا أننا كنا لا نبيعها، وإنما كنا نستغلها فقط أو نذبحها للوثن. أما مصدر رزقنا الرئيسي فكان هو الزراعة، ولذلك فقد كانت الكارثة التي تهدد عائلتنا كبيرة جداً. وأن ينقضي الحصاد بدون مكسب، فهذا يعني أننا سنكابد الفقر والجوع والحرمان لعام كامل علي الأقل.

أخذ أبي يفكر في حل لهذه المشكلة، فجميع الأصدقاء والمعارف

منشغلين بزراعتهم، ولا يستطيع أبي أن يطلب طلباً كهذا من أي شخص. ثم أن الأمر يحتاج إلي مساعدة ستة أشخاص ولمدة شهر كامل من الزمان لإنقاذ الموقف، فمن أين لنا بعدد كافٍ من الأشخاص ولمدة كافية من الزمن؟!

نظرت إلي أمي فوجدتها ساهمة شاردة لا تفتأ أن تهزّ رأسها في حيرة وهي تردد:

- مأساة... مأساة يا إلهي... ماذا نفعل؟! ليتك تعفو عنا أيها الإله لمبوراث.

أما أبي فقد ظل واضعاً رأسه بين يديه، وبين الفينة والفينة يطلق تنهداً عميقاً يعبر عن حجم الورطة التي وقعنا فيها.

اقتربت إلي أمي وأنا أشعر بالخوف يملأ قلبي وهمست في أذنها:

- *هل سنموت جوعاً يا أمي؟*

لم ترد عليَّ أمي بكلمة واحدة ولكنها فجأة رفعت رأسها وقد خطر لها خاطر فقالت:

- نرسل إلي أخوتي وإلي كوكو. إنهم يستطيعون أن يحصلوا علي إجازه ولو بالتناوب. نعم... نعم ليس هناك حل آخر فلنرسل إليهم. أنا أثق أنهم لن يتأخروا عن خدمتنا.

رفع أبي رأسه ببطء ثم قال:

♦ *كيف؟! إنني لا أسلّم عليهم ولا أستقبلهم في بيتي، لا هم ولا كوكو، فكيف أطلب منهم طلباً كهذا؟*

قالت أمي بتصميم:

○ لا يشغلك هذا الأمر، أتنتظر حتى نموت جوعاً؟ إني سأرسل إليهم كونو ابن عمي، وبإمكانهم استئجار منزل لمدة مؤقتة ليبيتوا فيه، فلا تقلق من جهة هذا الأمر، واتركه عليَّ.

لم يكن هناك حل آخر، ولم يكن هناك مجال للاختيار. وقد كان. فقد أرسلت أمي كونو ابن عمها إلي إخوتها في الخرطوم برجاء مساعدتهم لنا في الزراعة في ذلك الموسم.

١٤

بدأت الدراسة بالنسبة لأنجالو. وذهبت أنا مع أبناء أختي إلي المراعي.

بعد مرور شهر تقريباً، وكنت مازلت بالمرعي أعدّ طعام العشاء داخل الخيمة، سمعت صوت الصبي "كُندة" يهتف بأعلى صوته في فرح وانفعال كعادته.

♦ *هيه ذاتا.. هيه أويا... أخيراً بعد غيبة طويلة؟!*

أدركت أن كوكو قد حضر لزيارتي. وكم كانت فرحتي بلقاء كوكو كبيرة، خاصة وأن أنجالو لم يكن معي ليؤنس وحدتي، كما أنني زهدت في قصص كُندة الخيالية؛ فكنت كمن وجد كنزاً ثميناً بعد حرمان طويل.

كان كوكو هو ضيفي هذه المرة، فقمت أُعد طعاماً آخر لوجبة العشاء وأرتب الخيمة وأنظفها وأنا أغني سروراً وطرباً.

كان كوكو يلاحظني مبتسماً فقد كان يعرف مقدار إعـــزازي لــه. وكان كالو وكوي أبناء أختي يثرثران ويحكيان قصصاً لكوكو بعضـــها حقيقي وبعضها الآخر من خيالهما حتى انتهينا من عشائنا.

بعد أن تثقل أبناء أختي بالنوم، مددت جسمي علي الفراش بجـــوار كوكو، فأخذ يربت عليَّ في اشتياق وهو يردد:

○ أورانج بتاو .. أورانج بتاو.

بدأت أحكي لكوكو عن الزراعة في هذا الموسم وعن رغبة أمـــي في استدعاء أخوالي لمساعدتها. فقال لي:

لقد أرسلت أمي إلينا فعلاً كونو ابن عمها، وقد أخبرنا أنـــه إن لـــم تكن هناك مساعدة مكثفة فلابد أن تصيبهم خسارة كبيرة.

سألته:

♦ *وماذا كان موقف أخوالي؟ هل وافقوا؟*

جلس كوكو بعد أن كان نائماً بجواري، ويبدو أن ســـؤالي أثـــاره فأراد أن يحكي القصة بالتفصيل. فقال:

○ قبل حضور كونو بمدة ليست قليلة، كنا قد عزمنا علي الصـــلاة بلجاجة لكي يتنازل الرب ويجتذب قلوبكم جميعاً إليه.

قلت بضيق:

♦ *تتذكر أنني أخاف جداً من الإله لمبوراث وهذا الكـــلام يزيدنـــي*

ضيقاً وحيرة.

ابتسم كوكو ويبدو أن كلمة "حيرة" شجعته إلي حدٍ ما فقال:

○ توتو.. أرجوك أن تحتملني حتى أنتهي من قصتي، ثم لك أن تناقشني كما يحلو لك بعد ذلك... لقد كنا نصلي بلجاجة شديدة. فبعد العودة من الكنيسة كنا نُعد عشائنا بسرعة، وما أن ننتهي من العشاء حتى ندخل حجره الاستقبال، ونضع الوسائد علي الأرض ونبدأ في الصلاة. لا تتخيل يا توتو كم كنا نشعر بحضور الله، لدرجة أننا كنا لا نستطيع أن نتوقف عن الصلاة مع أن الوقت كان يطول بنا إلي طلوع الفجر، وذلك لأن حضوره كان يملأ المشهد أمامنا. ولا أستطيع أن أصف لك البهجة والسرور والفرح الذي كان يملأ قلوبنا حتى أننا كنا نبكي من فرط التعزيات. وعندما نذهب إلي المصنع في الصباح كنا نجد رغبة عارمة في نفوسنا أن نكلم زملاءنا عن المسيح. وذات يوم فوجئنا بوصول كونو الذي أخبرنا باحتياج أبي وأمي إلي مساعدة. شعرنا بفرح شديد أن تتاح لنا فرصة كهذه. وفي المساء أثناء اجتماعنا مع الإخوة للصلاة، أخبرناهم أننا سنذهب إلي لو:ا لمساعدة والدي في الزراعة، وكلنا أمل في أن نظهر المحبة التي تجذب قلوبهم إلي الرب. وقد تطوع خمسة من الأخوة بأخذ أجازه من العمل والذهاب معنا، فقسّمنا أنفسنا إلي فريقين بالتناوب. وحضر معنا الأخوة

المتطوعون إلي المنزل وعقدنا اجتماع صلاة، كنت أتمنـــى أن تكون معنا يا توتو لترى كم كان رائعـــاً. وشـــعرنا باســتجابة طلباتنا من أجل والدي. ولا أكذب عليك يا توتو أنني أصلـــي من أجلك وأنا أثق أن الله سيستجيب صلاتي في يوم من الأيام.

شعرت بصدق كلماته النابعة من قلب محب مخلص فسألته وقد بـدأ قلبي يلين ويرق لكلماته:

♦ *أنني أخاف من الإله لمبوراث يا كوكو. أخاف جداً أن يؤذيني.*

○ صحيح أن الشيطان – وليس لمبوراث – قد يحاول أن يؤذينـــا ولكن ثق أن إلهنا قوي ويستطيع أن يحمينا.

كدت أقول له إنه إلهه هو وحده؛ ولكن شيء مـــا عقـــد لســاني، واعتقد أنه بسبب شوق وُلد في قلبي أن يكون إلهي أنا أيضاً. فأجبت:

♦ *هل أنت متأكد أنه لن يؤذيني؟*

○ لن يؤذيك ولن يستطيع أن يفعل شيئاً إلاّ بسماح من الله.

كان لهذه الكلمات تأثير قوي علي نفسي، فشعرت بارتياح كبــــير. وما هو إلاّ وقت قليل حتى غرقت في النوم بجانب كوكو.

* * * *

استيقظت في صباح اليوم التالي علي صوت كالو وكـــوي وهمـــا يضحكان ويثرثران ويقصّان علي كوكو بعض قصصهم الطفولية.

ما إن استيقظت حتى تذكرت كل حديث الأمس مع كوكو. وتذكرت كيف أنني شعرت برغبة تتسلل إلي نفسي أن يكون لي إله مثل إله كوكو. وشعرت برعشة خفيفة تسري في جسمي؛ فماذا لو كان الإله لمبوراث يرى ويسمع، فيغضب غضباً شديداً عليَّ ويُنزل بي ألواناً من العذاب علي تلك الرغبة التي انتابتني. بينما أنا غارقٌ في تأملاتي سمعت صوت كوكو يناديني:

- توتو.. حبيبي أ أنت مستيقظ؟ قم يا حبيبي فأنني فلا بد أن أتركك الآن إلي الخرطوم.

تعلقت بكوكو وهو يعانقني. فقال لي:

- توتو .. إنني أحبك جداً، وأصلي من أجلك باستمرار وأطلب منك أن تفكر جدياً فيما قلته لك.

قبل أن أجيبه سمعنا صوت استغاثة قريبة. هرعنا جميعاً خارج الخيمة لنجد كُندة يتلوى من الألم، فصرخنا جميعنا:

- *ماذا بك يا كُندة؟*

قال وهو يتلوى من الألم:

- ثعبان .. لدغني ثعبان.
- *وأين هو؟*
- لقد توارى بين الأشجار .. آه أنني أشعر أنني أموت.



هرعنا جميعاً خارج الخيمة لنجد كُندة يتلوى من الألم

قال كوكو:

♦ *لا تخف يا عزيزي.*

أخرج كوكو مشرطاً من حافظة نقود، يبدو أنه أحتفظ به لظـــروف كهذه، وأخذ يشرّط كُندة في مكان لدغة الثعبان، ثم ربط ســـاقه أعلـــي مكان اللدغة.

ظل كُندة يتلوى من الألم، فلم يجد كوكو بُداً مـــن أن يـــأخذه إلـــي أقرب نقطة إسعاف. لم تكن قريبة بالفعل وإنما تبعد حوالـــــي ســـتون كيلومتراً عن خيمتنا، لذلك فإن فرصة النجاة لم تكن كبيرة بالدرجة.

ظللنا واقفين علي رأس الطريق الرئيسي مدة ليست قليلة، بينما كـــان كُندة يصرخ ويتلوى من الألم، ونحن نرتجف خوفـــاً لئـــلا نفشـــل فـــي العثور علي إحدى المواصلات. وأخذ كوكو يصلي بلجاجة إلـــي إلهـــه ليرسل لنا عوناً سريعاً. وأما أنا فأخذت أبكي وأرتجف خوفاً عليه، فقـــد كانت لكُندة مكانة كبيرة في قلوبنا لمحبته الصادقة لنا وإخلاصه الشديد.

بعد حوالي ساعة أو أكثر رأينا شاحنه كبيرة تقترب، فأخذنا نشـــير إليها بأيدينا، ولحسن الحظ توقفت واستقلّاها، كوكو وكُندة إلـــي نقطـــة الإسعاف.

أثناء العودة إلي الخيمة أخذت أفكر أنه لو حدث لي أنا مـــا حـــدث اليوم مع كُندة لأيقنت يقيناً لا يعتريه شك أن الإله لمبوراث قد غضـــب عليَّ غضباً شديداً، ولكن ها هو كُندة يؤمن بـــه إيمانـــاً راســـخاً وقـــد

أصابه ما أصابه من لدغة الثعبان. وشعرت أن أفكاري ومعتقداتي قد بدأت تهتز اهتزازاً كبيراً لا يمكن معه العودة إلي ثباتها.

بعد أسبوع تقريباً عاد كُندة، وكم كانت فرحتي بالغة بعودته سالماً. ومع أنه كان شاحباً وهزيلاً إلاّ أنه بمجرد جلوسه علي الوطاء* فوق الحصير بدأ يقصّ علينا كيف أن الأطباء أجمعوا علي أن السم كان قد جرى في جسمه إلي الحد الذي كان كفيلاً بأن يودي بحياته، وأن الأمل كان ميئوساً منه تماماً ثم قال:

- لقد سمعت الأطباء يقولون: *إن حياته هي رهن شئ واحد فقط وهو معجزة حقيقية يصنعها الله معه*. فقلت لهم: *إنني أعبد الحجر*. فقال أحدهم: *أتحب أن تصلي لإلهك أم نصلي نحن إلي الله الحي الحقيقي؟* كانت المسألة حياة أو موت، ولا أدري لماذا أجبته علي الفور: *إنني أريدكم أن تصلوا إلي الإله الحقيقي*. فقال الطبيب: *فاعلم أن الوثن ليس سوى حجر لا يسمع ولا يرى ولذلك فسأصلي إلي إلهي الحقيقي*. وأخذ الطبيب يصلي صلاة لم أسمع مثلها من قبل. كان كمن يكلم شخصاً حاضراً أمامه، وقد وضع فيه كل ثقته، وطلب منه بيقين شديد أن يشفيني، بل أن يفتح عينيّ فأعرفه. والعجيب جداً أنني في نفس اليوم مساءً بدأت أتعافى. وها أنا أمامكم

---

* الوطاء تعني الأرض

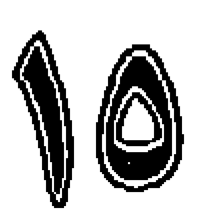
حيّ أرزق.

سألته في قلق:

♦ *هل أصبحت مسيحياً؟*

○ لا أنا لست مسيحياً، ولا أعرف شيئاً عن المسيحية، ولكنني اكتشفت وجود إله آخر غير لمبوراث. إله حي حقيقي يسمع ويستجيب.

وبمناسبة هذه القصة التي ذكرتها لك يا عزيزي القارئ؛ أتذكر ما حدث معي بعد حوالي ثلاثة أسابيع من هذه الحادثة، حيث كنت نائماً علي فراشي داخل الخيمة. وإذا بي أستيقظ علي شيء يتحرك داخل سروالي وأنا نصف نائم. أمسكت بالشيء الذي يتلوى علي بطني وقذفت به بعيداً، ثم أفقت جيداً وجلست مسرعاً وأنا أحدق النظر فيما قذفت به. لقد كان ثعباناً كبيراً يزحف مسرعاً ويختبئ بين الأشجار. وسمعت صوت كوكو يرن في أذني: *إن إلهنا قوي ويستطيع أن يحمينا ولو حاول الشيطان أذيتنا*".



كنت نائماً وقت الظهيرة داخل الخيمة عندما شعرت بشيء يخربش في قدمي، فقفزت فزعاً، ظاناً أنه ثعبان؛ ولكنني وجدت أخي أنجالو أمامي يقهقه بصوت مرتفع ويطوق عنقي بذراعيه ويقول:

○ وانكيرو*، حبيبي؛ إلي هذا الحد أزعجتك دعابتي؟ إنها ليست المرة الأولي التي أوقظك فيها بهذه الطريقة.

وفي الواقع أن أنجالو لم يكن يوقظني أبداً إلاّ بهذه الطريقة. إلا أن حادثة كُنده، والثعبان الذي التف حول جسدي، لم يكونا بلا أثر علي متانة أعصابي.

سعدت جداً بحضور أنجالو، ولم أكن أتوقع حضوره في ذلك الوقت من الدراسة فسألته:

---

* وانكيرو أي أخي

◊ *من الغريب أن تحضر في هذا الوقت؛ أليس كذلك؟*

○ نعم، ولكنني حضرت لأنني أردت أن أراك وأفضي إليك ببعض الأحداث الهامة.

◆ *ما هي؟*

○ ليس الآن.

◆ *لماذا؟*

○ لأنها هامة جداً وتستوجب وقتاً هادئاً وبعيداً عن الأولاد.

كان كالو وكوي في غاية السعادة بحضور أنجالو؛ فأخذا يتثبا ويتشبثا به، وينتظران منه أن يداعبهما؛ في الواقع لم أكن من أولئك الناس الذين يعرفون كيف يسلّون الأطفال، علي عكس أنجالو الذي كان يهوي مداعبة الأطفال وتسليتهم، بل لقد كان موهوباً في خلق جو من المرح والسرور لجميع الأعمار بدعاباته اللطيفة ونكاته الطريفة. لذلك كان عليّ أن أبذل مجهوداً كبيراً لأصرفهما عنه، بل لقد بذلت جهداً كبيراً أيضاً لأصرف كُندة الذي كان يختلق الأعذار حتى لا يقوم بعمله ويلازم أنجالو.

ما إن خلا الجو لكلينا، حتى جلسنا بعيداً تحت إحدى الأشجار، وسألته في لهفة:

◆ *أخبرني.. ماهي تلك الأحداث الهامة؟*

جلس أنجالو صامتاً، وتغيرت الضحكة الوضاحة التي كان يرسمها علي وجهه في مهارة، وبدا مهموماً قلقاً، وشبك يديه علي

صدره، وقال بنبرة تخلو تماماً من المرح:

o اسمع يا توتو إن أموراً خطيرة حدثت في بيتنـــا خـــلال هـــذا الشهر ولابد أن أُعلمك بها.

ثم سكت قليلاً وقال:

o ولابد أن نحدد موقفنا إزاءها.

قلت وضربات قلبي تزداد سرعة:

♦ *وما هي؟*

o البداية كانت قبل مغادرتك لوبا في هذه المرة. ربما تذكـــر أن حالة الزراعة قد ساءت جداً؛ وقد اضطـــرت أمـــي أن ترســـل كونو ابن عمها إلي أخوالنا ليساعدونا في الزراعة. كانت هـــي متأكدة أنهم سيوافقون، عكس أبي الذي استبعد هذا الأمر تمامـــاً. وانتظرنا حوالي ثلاثة أيام، كانت طويلة جداً بالنسبة لنا؛ وفـــي نهاية اليوم الثالث سمعنا طرقـــاً علـــي البـــاب، قمـــت لأفتـــح بخطوات متثاقلة إذ كان الهم يسيطر علي جميع أفـــراد بيتنـــا، كما أن أمي كانت تعاني آلام الحمل الجديد.

قاطعته بدهشة:

♦ *حمل جديد؟*

o نعم. ألا تعرف هذا؟... المهم، قمت لأفتح فإذا بي أجد أخوالـــي كنجو وكوناجي ومعهما اثنان آخران.

قامت أمي مسرعة لتصافح أخويها. أما أبي فقد وقف بعيداً لأنه لم يكن بإمكانه دعوتهما إلي الداخل. لقد كان الموقف محرجاً للغاية، وكان أبي مضطرباً جداً، فهاهم يتركون أعمالهم ويحضروا إلي لوبا خصيصاً لمساعدته في الزراعة، وهو لا يستطيع حتى أن يصافحهم أو يستقبلهم في بيته.

أدركت أمي الموقف؛ فأخذت حصيرة كبيرة وفرشتها خارج البيت فجلسوا عليها. وخرج إليهم أبي وهو يردد في خجل ظاهر عبارات الترحيب والتقدير لتعبهم وتضحيتهم، لكن دون أن يمد يد المصافحة.

جلسنا جميعاً علي الحصير وبدأ خالي كنجو الحديث فقال موجهاً كلامه إلينا:

♦ *أنتم لا تعرفون أصدقاءنا كوكو وجرورا، إنهم أصدقاؤنا وزملاؤنا في العمل، كما أنهم مسيحيون مثلنا. وعندما أخبرتهم بحاجتكم إلي مساعدة تطوعوا بالحضور إلي لوبا لمساعدتكم، رغم أن رواتبنا بالمصنع تحسب بعدد أيام العمل الفعلية.*

رأيت العرق يتصبب من أبي، فقد شعر بمقدار الكلفة والتضحية التي كان يجب أن تقابل بالحفاوة والترحاب، لا باستقبالهم خارج البيت وعدم مصافحتهم واستمر خالي يقول:

♦ *إننا سنبحث عن بيت صغير لنستأجره في هذه الفترة حتى لا نسبب لكم أية مشاكل.*

قال أبي وهو لا يرفع عينيه عن الأرض:

○ إنني آسف جداً. آسف جداً بالحقيقة، أنتم تعرفون قوانين القبيلة. إنني أتمني لو كان باستطاعتي استقبالكم في بيتي.

أجاب أحدهم، وهو جرورا، وهو شاب ظريف جداً ومتحدث لبق:

♦ *إننا يا سيدي نعتبر هذه الفرصة متاحة لنا من الله لنظهر المحبة التي وضعها الله في قلوبنا من نحو أخوتنا. لقد ضحي الرب من أجلي تضحية تفوق عقول البشر وهو ينتظر مني أن أظهر المحبة وأقدم التضحية لأجل الآخرين لكي ما أعلن للجميع أن الله محبة.*

سألت أنجالو:

♦ *ألم يجب أبي بكلمة؟*

○ ولا كلمة واحدة. كان عليه أن يتحمل كلامهم بصدر رحب، بل لقد كنت أراه يهز رأسه تأييداً كلام الرجل. علي أي حال فقد قدمت لهم أمي الشاي، وبعدها انصرفوا ليبدءوا العمل في اليوم التالي.

بدأ العمل في اليوم التالي مباشرة، وقد كنت أتوجه إلي الحقل بعد خروجي مباشرة من المدرسة، كانوا طوال الوقت يترنمون

بكلمات جميلة تعبر عن محبة الله وعن مـــوت المســـيح علـــي الصليب. كنت لأول مرة في حياتي أقابل أشــخاصاً مســيحيين بعد كودي وكومي. كانت السعادة تطل من وجوههم، وكـــانوا يبتدئون يومهم بالصلاة، وما أعجب صلاتهم إنها حديث شـــيّق صادر من داخل قلوبهم وصاعد إلي الله.

إنني أتذكر حديث كوكو عن أخوالي وعـــن صلاتـــهم، وأننـــى أعترف أنه علي حق بلا ريب. وقد شاهدت أبي لعـــدة مـــرات يقترب منهم ويتنصت إلي صلواتهم، ولا يتحرك من مكانـــه إلاّ بعد انتهاء الصلاة، وهكذا كنت أنا أيضاً.



قاطعته في خوف:

♦ *أنجالو! هل صرت مسيحياً؟*

○ لا أنا لست مسيحياً.

قلت وأنا أتلهف علي نهاية الأخبار لا علي تفاصيلها:

♦ *هل أصبح أبي مسيحياً؟ لا لا. لا أعتقد. هل صارت أمي مسيحية؟ أو أي أحد من عائلتنا؟*

○ دعني أواصل حديثي وستعرف كل شيء الآن.

كانت التضحية كبيرة جداً. ولقد تعبوا تعباً شديداً، وخسروا جزءاً لا يستهان به من مرتباتهم، وفعلوا ذلك بسرور وترحاب، وبعد أسبوعين غادروا لوبا، وحضر اثنان آخران لم يكونا أقل من زميليهما تعباً وتضحية.

وفي نهاية الشهر، وكان العمل المطلوب منهم قد تم علي أكمل وجه، ودّعونا وغادروا لوبا إلي الخرطوم. شعرنا بفراغ كبير بعد مغادرتهم، حتى والدي صرّح بأن وجودهم معنا قد ترك أثراً لا يمكن أن يُنسى أبداً وقد اعترف أن التضحية التي قدمها أخوالي لا يمكن له تعويضها بأية صورة، إذ مكثوا معنا شهراً كاملاً تاركين عملهم وخاسرين مرتباتهم عن طيب خاطر.

♦ *لكنني أتساءل هل كلموكم عن المسيحية، أو أرادوا إقناعكم. وهل استجاب أبي أو أبدى ارتياحاً؟*

o إنك تستعجل الأمور يا توتو، واعلم أنهم لم يحدثونـــا إلاّ مــرة واحدة ولما وجدوا مقاومة شديدة من أبي لم يعـــودوا للحــوار معه مرة أخري.

ثم عاد أنجالو فاستكمل حديثه قائلاً:

o قبل أن يسافر أخوالي طلبا طلباً في منتهى الغرابة مـــن أبـــي، قال له خالي كوناجي في رجاء:

♦ *توتو؛ هل تقبل فتذهب معنا أختي كاكا إلـــى مؤتمـــر روحـــي تعقده الإرسالية الأسترالية؟*

هتفت بأنجالو:

♦ *كيف طلب خالي هذا الطلب العجيب؟*

o الأعجب منه أن أبي لم يستطع أن يرفض الطلب، وكان كمـــن أُسقط في يده، فإن كان من الصعب الموافقة علي طلـــب كـــهذا فرفضه كان أصعب بكثير.

وقد كان؛ فكانت أمي وأختي يذهبان يومياً إلـــي المؤتمـــر، وفـــي المساء كان كل الحديث يدور حول ما سمعتاه في المؤتمر، وكـــان أبي ينصت إليهما في اهتمام، فكان يسألهما بمجرد عودتهما عمـــا سمعتاه، وشعرت أنه كان متشوقاً جـــداً لســـماع هـــذه الأخبـــار الجديدة. وتعجبت له، وتعجبت لنفســـي أيضـــاً؛ كيـــف أن هـــذه الأمور لم تزعجني، وتذكرت ما قاسيناه من مرارة عندمـــا أعلـــن

كوكو مسيحيته؛ إنني أتذكر أنك كنت تبكي وتنتف شعر رأسك وكنت أنا أشعر أن أحشائي تتمزق داخلي... ماذا حدث لي ولأبي؟ لا أعرف، وإنما كنت أنا لا أقل شوقاً عن أبي في معرفة هذا التعليم الجديد.

قاطعته قائلاً في ضيق:

♦ *أنجالو، أخبرني بنهاية القصة أرجوك. هل تعتقد أن هذا التعليم الجديد هو حق؟*

o ربما يكون هو الحقيقة.

شردت بأفكاري؛ فإن أنجالو كان أكثر مني تمسكاً بالديانة الوثنية، وشعرت كأنني في منطقة انعدام الوزن، فأنا الآن أشعر بتفاهة الديانة الوثنية وبطلها ولكنني لم أقبل المسيحية حتى الآن. وأفقت علي صوت أنجالو يقول:

o قد يكون هذا التعليم هو الحق، ولكنني أشعر أن هناك مسافة بيني وبين هذا الحق لا أعرف كيف أعبرها.

ومرة أخرى عبّر أنجالو عن موقفي أنا أيضاً تعبيراً دقيقاً.

واستأنف "أنجالو" حديثه قائلاً:

o ذات مساء بينما كنت مستلقياً علي فراشي سمعت هذه المناقشة بين أمي وأبي:

♦ *لقد كان حديث القس "بلاك" هذه الليلة مؤثراً جداً.*

○ القس الأسترالي؟

♦ *نعم الأسترالي، لقد قال إن الشيطان أراد أن يفسد قصد الله في خلق الإنسان البريء الذي يستطيع أن يكون في شركة مع الله. ولذلك فقد أغوى آدم وحواء فعصيا الله. وكانت هذه الإهانة الكبيرة جداً موجّهة إلي الله، وقطعت العلاقة بين الله والإنسان، واستوجبت سفك دم آدم وحواء لأن أجرة الخطية هي موت.*

قاطعها أبي مستعجباً:

○ كيف؟ إن آدم لم يُسفك دمه. لا هو ولا حواء؟

♦ *لا لم يحدث هذا لأن الله ذبح ذبيحة وكساهم بجلد الذبيحة، وكان هذا هو أول إعلان من الله عن الفداء.*

○ علي أي حال، هذا ما نطبقه في الوثنية عندما نقدم الذبائح.

♦ *انتظر... لقد كانت هذه الذبيحة وغيرها من الذبائح تشير إلي ذبيحة كاملة سوف تُقدَّم، وقد قُدِمت فعلاً إذ بذل المسيح نفسه فدية عنا جميعاً.*

○ يقصد أنه سلّم نفسه للذبح أو للصليب بإرادته؟

♦ *نعم لقد قال القس إنه ذهب إلي الصليب بكامل إرادته، ليكون هو الفدية التي تقدم عنا جميعاً.*

○ هل تصدقين أنتِ هذا الكلام؟

سكتت أمي قليلاً ثم قالت:

♦ *إنني أصدقه، ولكنني لست بالشجاعة الكافية لأترك ديانة آبائي وأقبل ديانة أخري، فهذا أمر بالغ الصعوبة علي نفسي.*

واعتدل أنجالو في جلسته وصمت لفترة قليلة حسبتها كالدهر. ثم قال:

○ في اليوم التالي لاحظت أن أبي يجلس ساهماً شارداً معظم يومه ثم سمعته يسأل أمي:

○ هل ستذهبين اليوم إلي المؤتمر؟

♦ *نعم. بالطبع.*

وبعد فترة صمت وجيزة كان أبي يستجمع شجاعته فيها، فوجئت به يقول:

○ سأذهب معكم، فأنا أريد أن أعرف ما يعرضه هذا المذهب من أفكار.

صدرت مني شهقة تعجب واستنكار. غير أن أنجالو أكمل حديثه قائلاً:

○ غادر أبي البيت مع أمي وتركاني في ذهول، وأنا لا أصدق ما يجري أمامي، وشعرت بالأرض تميد تحت قدميّ، أتلمس جاهداً لعلي أجد أرضاً صلبة أقف عليها دون جدوى. وبينما

أنا في حالي هذه سمعت طرقاً علي الباب. قمت إلى الباب وفتحته، فوجدت أمامي العم توتبا، وهو أكثر أفراد القبيلة تعصباً للديانة الوثنية. قال:

♦ *أين أبوك؟*

○ لقد خرج منذ دقائق.

♦ *إلي أين؟*

○ لا أعرف.

♦ كيف *لا تعرف؟ ألم يخرج هو وأمك؟*

○ نعم. خرجا ولكنني لا أعرف أين ذهبا.

♦ *بل تعرف.*

○ لا.



قال بانفعال زائد:

♦ *أخبرني أين ذهبا؟*

○ قلت لك لا أعرف.

فوجئت بصفعة هائلة تنزل علي خدي، ورأيت عينيه تشتعلان غضباً، وقال بصوت كالرعد:

♦ *ألا تعرف أنه ذهب إلي الكنيسة؟ ألا تعرف أنه سيصير مسيحياً لا محالة؟ ألا تعرف أنه سيستوجب غضب الإله وغضب القبيلة كلها؟*

وأخذ العم "توتيا" يهزني هـزاً عنيفـاً حتـى ارتجفـت أوصـالي وتصببتُ عرقاً وأنا أقول:

○ لا. لا أعرف شيئاً.

فتح العم توتيا الباب ثم استدار ونظر إليّ نظرات شرسة وقال:

♦ *اخبره أنني ساكون أول من يبادر بقتله إذا ما أعلن مسيحيته.*

ثم خرج صافقاً الباب خلفه.

سكت أنجالو قليلاً، وأخذ يجفف عرقه، فذِكر الموقف نفسه كان لـه وقع شديد عليه. ثم قال:

○ أخذت أرتعش من هول المفاجأة، ثم خنقتنـي الدمـوع فبكيـت خوفاً علي أبي وأمي من بطش القبيلـة، وشـعرت بالوحشـة والكآبة يخيمان عليَّ. فخطر علي بالي أن أقوم وأذهـب إلـي الكنيسة، وأري نفسي ما يجري هناك، بدلاً من أن أظل هكـذا أعاني الوحدة والخوف.

وفعلاً قمت للتو وذهبت إلي الكنيسة. عندما وصلت كان القـس بلاك يتحدث حديثاً قوياً عن وجود دينونة قادمة لا محالة علـي كل من لم يحتمِ في دم المسيح، الذي سفك دمه لكي يكفـر عـن خطايانا. كان الحديث قوياً جداً، حتى أنني أوشـكت أن أعلـن مسيحيتي، لولا صراع ثار في نفسي بين عقيدة آبائي وأجـدادي وبين هذه العقيدة الجديدة، فلم يكن انتزاع العقيدة التي سرت فـي

دمائي لسنين طويلة هو أمر يسير عليَّ.

سألت أنجالو وأنا أتلهف علي معرفة باقي الأحداث:

♦ *وماذا عن أبي وأمي؟*

○ أباك... استمع فاروي لك ما حدث مع أبيك ..

لقد فوجئت بأبي، بل وفوجئ جميع الحاضرين؛ فوجئنا به يهتف بأعلى صوته:

○ إنني أريد أن أحتمي في المسيح ذي الجنب الجريح، فهل تقبلني يا رب؟ أنني هالك لا محالة، فهل من عفو لي علي أساس الدم؟

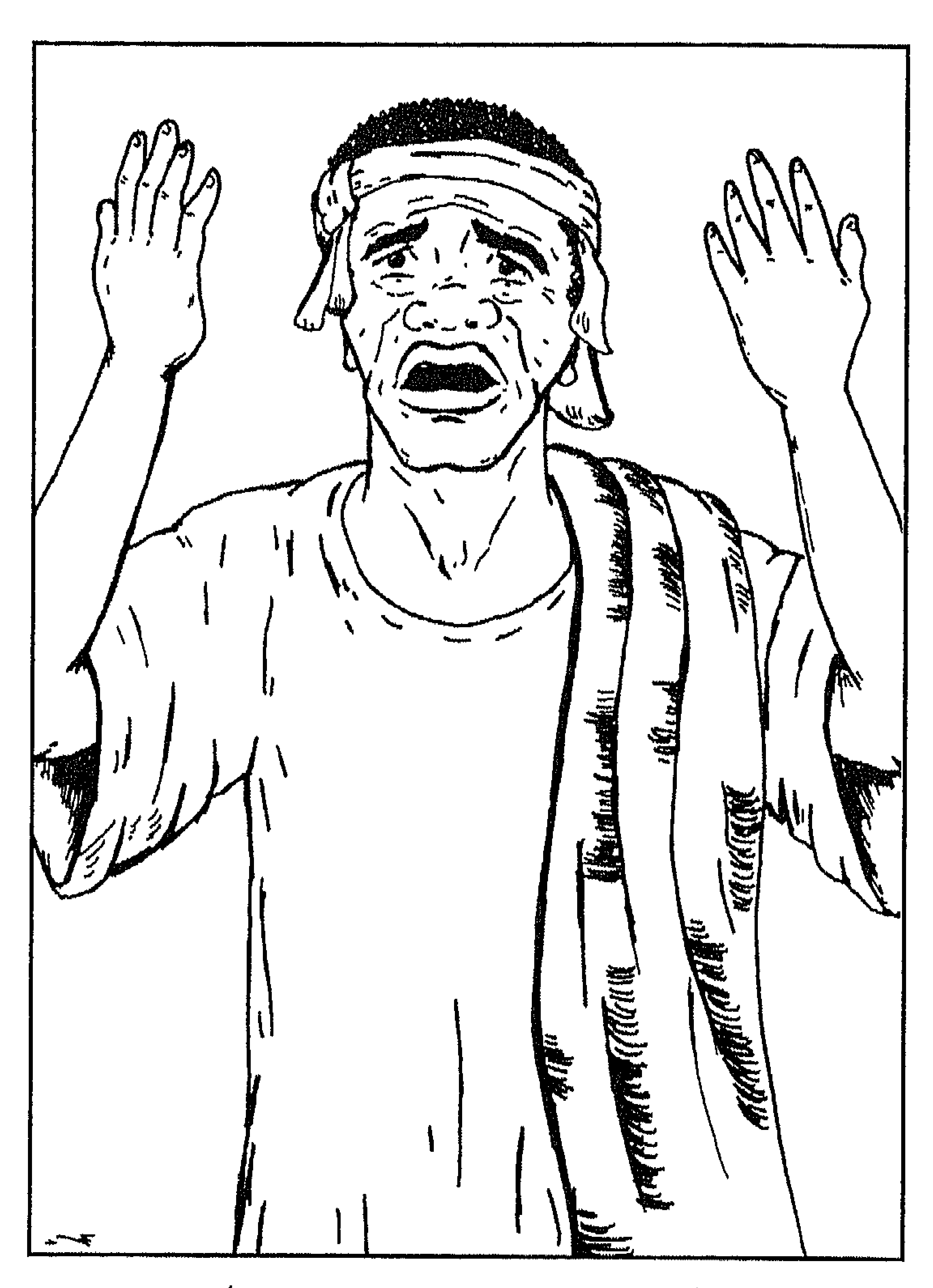
سألت أنجالو وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع:

♦ *أبي؟ .. أبي قال هذا الكلام؟ أبي صار مسيحياً؟ إنني لا استطيع أن أصدق.*

○ بل صدّق يا أخي.. لقد ظل يبكي وهو يردد:

○ هل يوجد عفو لمثلي؟ رجل طرد ابنه من بيته لاتباعه الرب؟ رجل عبد الوثن طول حياته، بل هو كاهن الوثن وبيديه يقدم له الذبائح؟

نزل القس من علي المنبر وصافح أبي، وقال له إن الله مستعد أن يقبله قبولاً أبدياً إن هو رجع إليه بكل قلبه. ورأيت أبي يبكي من شدة فرحه وأخذ يكفكف دموعه وهو يقول:



لقد فوجئت بأبي، بل وفوجئ جميع الحاضرين؛ فوجئنا به يهتف بأعلى صوته

o إنني أثق أن الله قبلني، فهذا الشعور بـــــالفرح دليـــل قبولـــه لنفسي التائبة.

عدنا إلي البيت وأنا لا أصدق ما يجري حولي من أحداث. مـــا إن وصلنا إلي البيت حتى قالت أمي:

♦ *إنني أريد أن أكون مسيحية، فأنا مقتنعة تماماً بمـــا ســمعته اليوم.*

أجبت بانفعال:

♦ *أمي أيضاً؟*

o نعم. وأعتقد أنها كانت قد آمنت بهذا التعليم قبل والدي ولكنـــها كانت تخشى أن تسلّم حياتها للرب حتى شجعها والـــدي. لقـــد قال لها أبي بفرح ظاهر:

o اطلبي من الرب أن يقبلك وسلمي حياتك بالتمـــام لــــه وهـــو مستعد أن يقبلك كما قبلني.

لم ننم طوال الليل فقد أخذت أمي تصلي بدموع، وتطلـــب مـــن الله أن يحميها في دم المسيح، وكان أبي يهتف في سرور طـــوال الوقت شاكراً وحامداً ومعترفاً بجميل الله عليه. ووجدته يقبـــل نحوي ويقبلني ويربت علي كتفي قائلاً:

o أنجالو.. كم كنا أغبياء إذ عبدنا الحجـــر وتركنـــا الله الحـــي

الحقيقي.. آه أرسل إلي كوكو حالاً ليحضر ويفـــرح معنـــا.
وأنت يا أنجالو ألا تقبل إلي الرب؟ ألا تحتمي في الدم؟

لم استطع أن أجيبه بكلمة، فربما كنت أنا أكـــثر أفـــراد العائلـــة تمسكاً بالديانة الوثنية. لقد كنت أشعر أنها تسري فـــي دمـــائي ولا أستطيع أن أتخلص منها. غير أن ما ينتابني الآن يا أخـــي هو شعور بالاختناق كما أنني أشعر بالخوف الشديد من الأبديـــة. إن حالتي النفسية تزداد سوءاً ولذلك حضـــرت إليـــك - رغـــم الدراسة - لأتحدث معك وأروي لك، ما حدث لعلك تســتطيع أن تخفف عني هذا الضيق الشديد الذي ينتابني.

تألمت جداً لحال أنجالو، فإنني منذ صغري، كنت لا أجد اطمئنـــاني إلاّ مع كوكو ولا أجد مرحي وطربي إلاّ مع أنجالو؛ فكيف أســتطيع أن أواسيه أو أرفع روحه المعنوية أو أبعث الســـرور فـــي قلبـــه وهـــو المسئول عن بعث السرور في قلوبنا. كما أن حالي لم يكـــن أفضـــل منه، فشكوكه وحيرته هما نفسهما شكوكي وحيرتي. إلا أننـــي كنـــت أريد أن أقف موقفاً إيجابياً من أخي، وهو الذي ترك دراســـته وســـار مسافة طويلة ليجد عندي ما يريح نفسه المتعبة.

قلت له:

♦ *أنجالو.. دعنا نترك كل ما عرفناه عن الوثنية، ولا نطلب أبـــداً*

أن نعرف المسيحية، وهكذا نكون مجردين عن كل ما يربطنـــا بأي دين، ثم نطلب بإخلاص من الله الحقيقي أن يرشدنا.

١٦

بينما كنت وأنجالو نعدّ طعام الغذاء داخل الخيمة سمعنا صوت الصبي كُندة يهتف:

♦ *توتو، أنجالو؛ هناك رجل أبيض يريد أن يستريح قليلاً في الخيمة من حر النهار، هل أسمح له؟*

أجبنا في صوت واحد:

○ نعم، بالطبع.

وخرجنا مسرعين لنستقبل الرجل، فهل تعرف يا عزيزي القارئ من كان ذلك الرجل؟ لقد كان الخواجا مايكل لورانس الذي ضللنا طريقه قبلاً! شعرنا بالحرج الشديد، ولم نعرف كيف نتصرف. غير أن الرجل صافحنا بحرارة وقال:

♦ *ألستم إخوة الصبي الصغير الذي وجدني شبه ميت وقدم لي يد المساعدة؟ لقد كنتم كرماء وقدمتم لي طعاماً وماء.*



ثم قال مازحاً وبشاشته لم تفارق وجهه:

○ كما أنكم أشرتم عليَّ بأقرب الطرق إلي لوبا... أليس كذلك؟!

كان سؤاله مخرجاً لنا جداً، غير أن ابتسامة العريضة خففت كثيراً من الحرج. فقال له أنجالو:

♦ *ترى إلي أين أدّى بك هذا الطريق الذي أشرنا به عليك؟*

○ إلي أين؟ أتريد أن تعرف إلي أين؟ لقد أدي بي إلي منطقة صحراوية ليس بها إنسان أو حيوان. وعرفت أنكم ضللتموني وأنني ميت لا محالة. فركعت علي ركبتيّ وطلبت إلي الرب يسوع المسيح أن ينقذني وأن يرسل إليَّ عوناً في حينه، وما هي إلاّ لحظات حتى سمعت كلباً ينبح نباحاً عالياً، فالتفت لأجد

الكلب يجري نحوي حيناً ثم يجري بعيداً حيناً آخـــر؛ فــأدركت أنه يطلب مني أن أتبعه. وفي الحال تبعته، فاســـتمر يجــري ببطء وأنا أسير خلفه، حتى وصلنا إلي المكان المقصود. كـــان هناك فرساً عربياً وإلي جواره، يرقد علي الأرض شاب أســمر اللون يبدو عليه إمارات الثراء والأصل العريق، وكــان يتــأوه بشدة من الألم اقتربت إليه وسألته:

♦ *ماذا حدث يا بنـي؟*

○ لقد سقطت من علي الفرس إذ كنت أسرع السير به لأقصــى درجة.

♦ *لا باس عليك. اتسمح لي فاركب خلفك وأسوس الفرس إلـــي المكان الذي تقصده؟*

○ إن هذا تفضل كثيراً يا سيدي.

حاول الشاب أن يقوم ولكنه لـــم يســتطع، فــانحنيت وحملتــه وأركبته الفرس وركبت خلفه، بينما هدأ الكلب وقد شـــعر أنـــه نجح في مهمته. ثم سألت الشاب:

♦ *إلي أين أنت ذاهب؟*

○ إلي لوبا.

♦ *وأين الطريق إلي لوبا؟*

أشار إلي طريق عمودية علي الطريق التي أرشدتموني إليـــها. فسألته:

♦ *ولماذا تقصد لوبا؟*

o إنني أريد أن أزور قساً يدعي بلاك، وهو يبشر أهـــل لوبـــا بالمسيح.

قلت وقد شعرت بأن روحي قد رُدت فيّ وأحسست باطمئنـــــان كبير. فهذا الشاب لن يضللني كما فعلتم أنتم بي:

♦ *هل تؤمن يا عزيزي بالمسيح؟*

نعم. إن أبي وأمي مسيحيون، وقد أوفدونـــي إلـــي لوبـــا لأُقـــدم مساعدة إلي القس بلاك. ولكن قل لي أي مكان كنت تقصد أنت؟

♦ *نفس المكان؛ لوبا، غير أنني ضللت طريقي، وكـــدت أمـــوت لولا كلبك الأمين الذي استدعاني إليك.*

وهكذا ذهبنا سوياً إلي لوبا.

هتف أنجالو بتأثر:

♦ *وهكذا استجاب الله صلاتك بسرعة عجيبة.*

أجابه السيد مايكل:

o إن الله ليس فقط كليّ القدرة لكنه أيضاً كليّ المحبـــة. وأنـــا لا أشك في محبته، حتى ولو كانت الظـــروف حولـــي صعبـــة أو مؤلمة، لكنني أثق في محبته لأنه علي الصليب بيّن محبته لي.

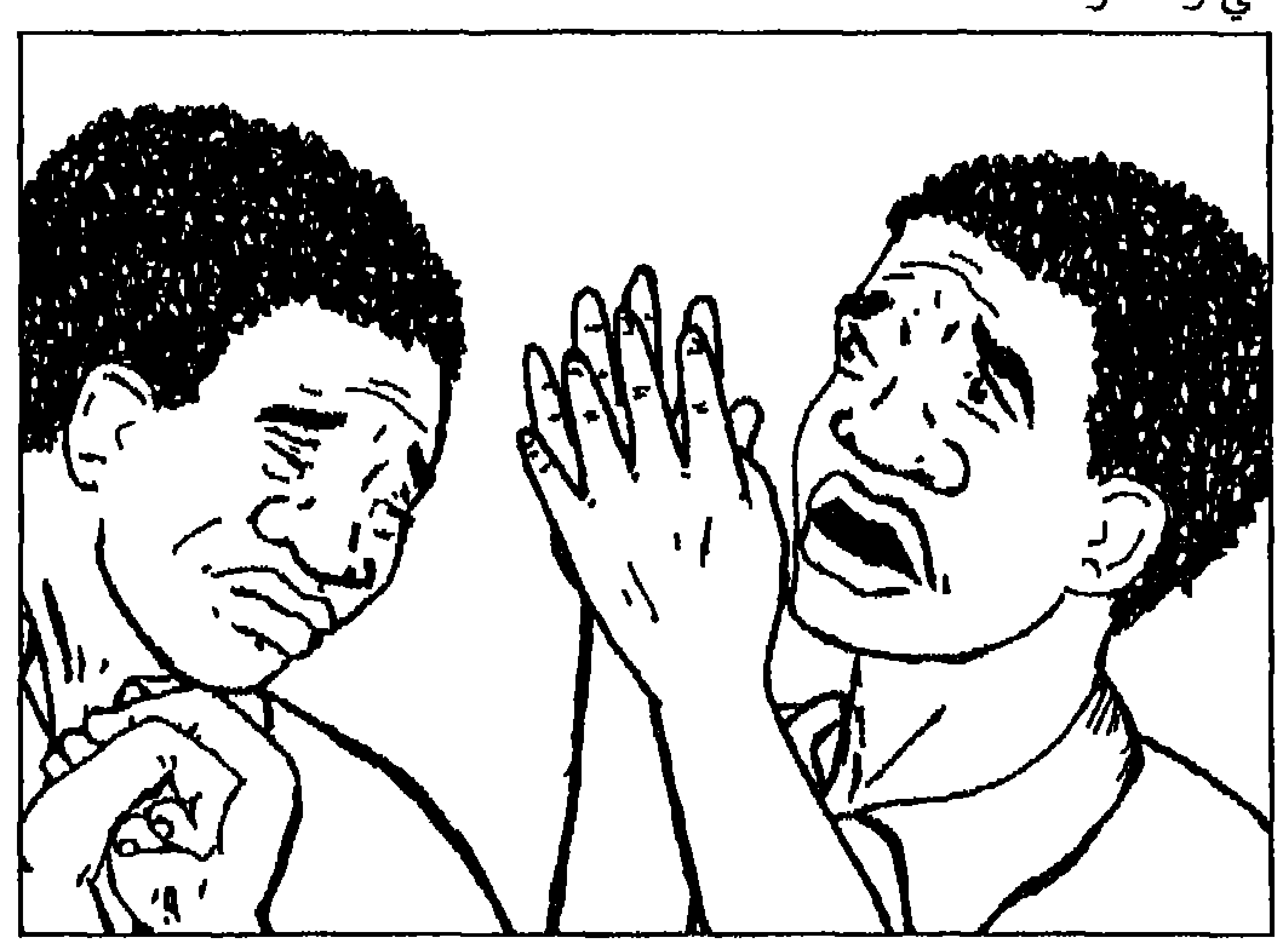
وأخذ السيد مايكل يشرح الفداء بطريقة مؤثرة جداً، وأوضـــح لنـــا

محبة الله التي تسعى وراءنا رغم عنادنا.

وأخيراً غلب الرب بمحبته عنادنا، وأذاب جمودنا ولم نستطع أن نصمد أمام تبكيت روحه لنا بعد مجاهدة طويلة دامت لعدة سنين. ولم نستطع أن نحبس دموعنا، فأجهشت أنا بالبكاء بينما هتف أنجالو:

♦ *إنني لا أستطيع أن أصمد أمام هذه المحبة العجيبة. إنني أعترف به رباً ومخلصاً، وأحتمي في دمه الكريم بكامل إرادتي، وأسلمه حياتي بجملتها لأصير بالحقيقة ملكاً له.*

أما أنا فقد خنقتني الدموع فلم استطع أن أتكلم، لكنني من كل قلبي سلمت حياتي بالكامل للرب. وهكذا شهدت خيمتنا ولادتين جديدتين في وقت واحد.



تعلقنا جداً بالسيد مايكل وأحببناه، وطلبنا منه أن يمكث معنا يومين أو يعود معنا إلي لوبا، لكنه أعتذر لارتباطه بخدمة في مكان آخر. وقبل أن يذهب سألنا إن كنا سنغيرّ أسماءنا إلي أسماء مسيحية فأجاب أنجالو علي الفور:

♦ *إنني سأسمي نفسي مايكل.*

فأجاب السيد مايكل وهو يصافح أنجالو:

○ عظيم جداً.

ثم مد يده إليّ وهو يقول:

○ وأنت إبراهيم؟

أجبت:

♦ *نعم "إبراهيم".*

وهكذا أصبح أنجالو مايكل، وصرت أنا إبراهيم من ذلك الحين.

في اليوم التالي مباشرة أخذنا نحدث كُنده عن محبة الله، وعن الفداء العظيم الذي قدم علي الصليب ويبدو أن الله كان قد سبق وأعدّ قلبه إعداداً كبيراً، حتى أن كلمات قليلة منا كانت كافية بالروح القدس أن تقتاد تلك النفس إلي المسيح.

عزيزي القارئ، مهما وصفت لك ومهما أطلت في شرحي، فلا يمكنني أبداً أن أصف لك بهجة الخلاص التي تمتعنا بها. كان فرحاً

غامراً يملأ قلوبنا، حتى أننا كنا نصفق بأيدينا ونقبل بعضنـــا بعضـــاً، ونهتف شاكرين وحامدين بصوت مرتفع.

تخيل – قارئي العزيز – أنك كنت وثنيـــاً لا تعـرف الله وتعبـد الحجر مثلنا، ثم أشرق الله علي قلبك لمعرفة الحق، وظللتك محبـــة الله العجيبة. ماذا كنت تفعل؟ تخيل إنساناً أعمي منـذ ولادتـه منحـه الله نور البصر فرأى خليقة الله الجميلة ونور السماء المشرق، أكثير عليـه أن يقفز فرحاً ويغني سروراً ويرقص طرباً؟! هكذا غمرتنـا سـعادة فائقة إذ انتقلنا من الموت إلي الحياة ومن الظلمة إلـــي النـور ومـن الوثنية إلي الله الحي الحقيقي.

١٧

أثناء عودتنا إلي لوبا، وكانت المسافة حوالي ستة أو سبعة كيلومترات؛ كنا لا نكف عن الحديث عن محبة الله التي وصلت إلينا في جهلنا وظلامنا، غير أنه كانت هناك بعض الأمور التي كانت تستوقفنا وترمي ظلالاً سوداء علي النور البهيج الذي يلفّنا، فكنا نتوقف لنتساءل: ماذا عن أبينا، كاهن قبيلة مورو؟ إنها حادثة لن تمر بلا عواقب وخيمة، لابد أن يُقتل. والخوف كل الخوف أن يُعذَّب. ومن ترى سيقدم الذبائح بعده؟ لا أحد؛ لأن الكهنوت موروث في عائلتنا فقط. وهل يسكت وجوه الشعب عن هذا؟ كلا بالطبع ماذا سيكون رد الفعل؟ هذا ما كان يرعبنا.

كان رد فعل القبيلة هو الشبح المخيف الذي يملأ قلوبنا بالرعب، غير أننا كنا نتحول عن هذا الحديث بسرعة إلي الحديث عن محبة الله التي سعت في أثرنا، وعن النور الذي أشرق في قلوبنا فتبتهج نفوسنا

مرة أخري. وهكذا واصلنا رحلتنا حتى اقتربنا من قريتنـــا، وإذا بنـــا نلمح كومي وأباه كودي عائدين من الحقل، فأســـرعنا ننـــادي بـــأعلى صوتنا:

♦ *كومي؛ كودي. هيه ذابا.. ذابا.*

ألتفت كومي فرآنا، وأسرع نحونا واستقبلنا بفرحة حقيقية. قلنا له:

♦ *هل سمعت آخر أخبارنا؟*

فوجئ كومي بنا نسأل هذا السؤال والفرح بادياً علي وجوهنا، فقـد كان يتوقع منا المعارضة الشديدة لتحول والدينا عن الوثنية، فســـألنا في شك:

○ أخبار أبيكم وأمكم؟

♦ *نعم. وأخبارنا نحن أيضاً.*

○ ماذا تقصدون؟! هل تقصدون أنكم أنتم أيضاً... ؟

♦ *بالضبط. لقد صرنا مسيحيين. لقد آمنا بالرب يسوع المسيح.*

لم يصدق كومي أذنيه، فأخذ يقفز ويهتف ويشكر الرب من أجلنا.

في ذلك الوقت كان كودي قد وصل، فســـألنا عـــن ســـبب هتافنـــا وسرورنا. وبينما نحن نحكي له قصتنا، وجدنا كومـــي يجـــري فـــي اتجاه بيتنا ليزف إليهم الأخبار السارة قبل وصولنا.

قبل أن نصل إلي البيت كان كوكو قد جـــاء لاســـتقبالنا، وأخذنـــا

نتبادل العناق والتهنئات إلي أن وصلنا البيت لنستكمل فرحتنا مع أبـــي وأمي. وأخذت جفوه تعانقنا وتوزع القبلات علينا، وكانت تقفز فرحـــاً إذ أن الجو العام كله كان يشيع بالفرحة والسرور.

مرّ يومان علينا ونحن في غاية السرور والفرح، وقد أكتمل شـــمل الأسرة إذ جاء أخوالي لزيارتنا وتهنئتنا، وعملت أمي في الحقيقـــة مـــا تستطيع عمله لتعبر عن فرحتها وسرورها بوجود أخوتها.

في اليوم الثالث من هذه الأفراح، طرق بابنا طارق، وكان الطـــارق في هذه المرة هو ذلك الرجل توتيا الذي صفع أنجالو منذ عدة أيام.

فتح أنجالو الباب، فدخل الرجل دون استئذان، ودار ببصـــره فـــي أنحاء الغرفة حتى وجد أبي جالساً في أحد أركانها يحتسي كوبـــاً مـــن الشاي. وقف الرجل في وسط الغرفة واضعاً يديه علي حقويه ثم قـــال بلهجة ساخرة:

- *ألا من نهاية لهذه المهزلة؟*

قام أبي من مكانه بهدوء، ووضع يديه علي كتف توبيا، فضربـــها الأخير وأنزلها بعنف من علي كتفه وهو يقول بغضب شديد:

- *اياك أن تلمسني، إنك نجس وزوجتك وأولادك نجســـون. لقـــد غدرت بآلهة آبائك.. يا للعار! من ســـيقدم الذبـــائح إذا كـــان الكاهن المبجل قد ترك ديانته ليعبد المسيح؟ أتظن أن الآلهـــة ستصفح عنك؟*



ثم حدق في أبي والشرر يتطاير من عينيه واستطرد قائلاً:

♦ *وإن صفحت عنك الآلهة فأنا لن أصفح. إن السيف لم يصنع إلاّ لأمثالك.*

ثم أضاف بلهجة ساخرة:

♦ *أليس كذلك يا سيد أخنوخ؟ (فقد كان اسم أخنوخ هو الاسم الذي تسمي به أبي بعد إعلانه مسيحيته).*

ثم استدار الرجل وخرج في صمت.

مكثنا دقيقتين في صمت مطبق إذ فاجأنا الرجل بدخوله المنزل

ووعيده الشديد لأبي. غير أن أبي قال بهدوء:

- لا تنزعجوا البتة، فلا يمكن أن يحدث أي شيء بـدون سـماح من الله، وإذا سمح الله بقتلي فذلك سيكون لمجدة ولبركة نفـوس كثيرة.

ومع أن تصرف الرجل أصابنا بصدمة وقتية إلا أن كلمات والـدي الهادئة والنابعة من سلام عميق في القلب، كان لها تأثيرها الكبير علـي نفوسنا، فشعرنا بالهدوء والاطمئنان، فعدنـا إلـي سـرورنا وفرحنـا وشعورنا العميق بالجميل من نحو الله.

وهكذا سارت بنا الحياة هادئة حلوة جميلة؛ نتمتع فيها بحـب الأب، ونبصر ذراعي القدير تعتني بنا، ونتذوق محبة الله التي انسـكبت فـي قلوبنا وفاضت بغزارة إلي من حولنا.



بدأت أستعد لدخول المدرسة، وكان عمري وقتئذ خمسة عشر عامـــاً، وكان ذلك في عام ١٩٧٥. وفضّل أبي أن أتلقي تعليمـــي بـــالخرطوم، حيث أن الفارق كان كبيراً بين مدارس الخرطوم ومدارس لوبا.

سجلت اسمي الجديد بالمدرسة، وكانت المدرســة تقبـل الأولاد ذوي الأعمار المتقاربة من عمري والذين لـــم تتـــح لـــهم فرصـــة الدراســـة المبكرة، وكانت تبعد كثيراً عن سكن أخوتي إيليا ومايكل (توتو وأنجـــالو سابقاً). استأجرت سكناً مناسباً قريباً من المدرسة وتعرفت هنـــاك علـــي شاب مؤمن أصبح من أعز أصدقائي فيما بعد ويدعى "ع.م".

كان صديقي هذا قد وُلد في بيت لا يعرف الرب من قريب أو بعيـــد؛ غير أن الله افتقده بطريقة عجيبة. فلما رويت له قصتي ازداد تعلقاً بـــي وشجعني علي دراسة الكلمة والصلاة كما أنني ارتبطت به وأحببته.

وذات يوم شعرت بغيمه ثقيلة تخيم عليّ. فقد عاد مايكل من لوبـــا

ليخبرني أن الجو العام متوتر جداً، وأن أقطاب بعض القبائل المعادية لقبيلة مورو قد هددوا أبي بالقتل. وبدأ خوفنا يتجه إلي خارج القبيلة، فالتهديدات كانت كلها من قبائل أخرى وعصبيات أخرى متشددة خارج القبيلة ومعادية لها وحاقدة عليها، حيث أن القبيلة كانت من أغني القبائل علي الإطلاق. وكان اعتناق أبي المسيحية هو الذي أوقد الشرارة الأولي من نيران الحقد والغضب، خاصة وأن أعداداً غفيرة من قبيلة أرينغ دخلت المسيحية بعد أن أعتنقها أبي.

سألت مايكل:

- ♦ *ألا يستطيع أبي أن يقيم بالخرطوم هروباً منهم.*
- ○ لقد حاولت فعلاً مع أبي أن يترك لوبا، ولكنه رفض. ثم إنه من المتوقع أن تلد أمي هذا الأسبوع، وفكرة النقل من مكان لآخر ستكون بالغة الصعوبة.
- ♦ *وكيف حال أبي هل هو منزعج أو متوتر؟*
- ○ أبداً إنه يحدث كل الناس عن الرب ويقول أنه يفضل أن يقتل في سبيل الخدمة علي أن يمتنع عن التبشير خوفاً منهم.

* * * *

فارقني مايكل، ولكن لم تفارقني تلك الغيمة الثقيلة التي غيمت عليّ، فوضعت رأسي بين يديّ. ولا أدري كم من الوقت مضي عليّ قبل أن يرن في أذني صوت ع.م قائلاً:



○ ما هذا؟ ماذا جرى لك يا إبراهيم؟ إنها المـــرة الثالثـــة التـــي أناديك فيها. ألاّ تسمعني؟

رفعت رأسي ببطء والدموع تملأ عينيّ وسألته:

♦ *ماذا؟*

○ ما معنى هذا؟.. إنك تبكي؟

♦ *ماذا تريد يا مكـي؟*

○ ماذا أريد؟ إنني أريد أن أفهم سبب بكائك أولاً. مـــاذا حـــدث أثناء خروجي؟ هل جاء لزيارتك شخص ما؟

♦ *نعم. مايكل أخـي.*

○ جاء بأخبار غير سارة؟

♦ *نعم. إن أبي سيُقتل .. سيُقتل قريباً .. القبائل المتشددة ستقتله إنني أريد أن...*

ولم استطع أن أواصل حديثي فانخرطت في البكاء.

سكت صديقي قليلاً، ثم اقترب مني وأحاطني بذراعه وهو يقول بنبرة هادئة:

○ إبراهيم .. أنت تعلم أن أمورنا كلها في يد الرب. ولا يمكن أن يحدث لنا أي شيء بدون سماح منه. وتأكد أنه لو قُتل أبوك – وكان يجب أن تعرف أنه أمر متوقع جداً – لو قُتل فسيكون ذلك إكراماً عظيماً له، وشرفاً كبيراً له، وشرفاً كبيراً لكم، وشهادة قوية علي الإيمان المسيحي.

بدأت أكفكف دموعي واستمر هو يقول:

○ يجب عليك أن تفرح يا أخي أن يشرفكم الرب بهذا الامتياز ... هيا بنا نصلي.

قضينا فرصة هادئة أمام الرب. ثم قمنا ونحن نشعر بالسلام والفرح يملأ قلوبنا. وهكذا أوينا إلي فراشنا هادئين مطمئنين، وقد انقشعت تماماً تلك الغيمة الثقيلة التي ظللتني.

* * * *

بعد يومين تقريباً جاء إيليا إلي السكن الذي أقطنه وقد بدت السعادة علي وجهه وهتف بي:

♦ *إبراهيم .. ألاّ تريد أن تسلم علي "كوجا".*

○ كوجا؟!

♦ *نعم. أختك الصغيرة.*

قفزت من مكاني وأنا أهتف:

○ هل وضعت أمي مولودها؟

♦ *نعم واسموها كوجا.*

أخذت أرتب حاجياتي في سرور وأستعد للسفر مع إيليا ومـــايكل. وكانت سعادتي كبيرة جداً، ليس فقط بولادة كوجا، وإنما أيضاً بالتئـــام شمل الأسرة ورؤية أبي وأمي، وخاصة أبي الذي كنت أشعر بـــالخوف الشديد علي حياته.

* * * *

قضينا في لوبا أياماً رائعة لا يمكن أن تُمحى من ذاكرتي، تمتعـــت فيها بمظلة الحب التي ترعرعت تحت ظلها فـــي طفولتـــي وصبـــاي. وتمتعت بمحبة أبي وأمي، وحنان كوكو، وصحبـــة أنجـــالو الحلـــوة، وطرائف جفوه. وقد شملتنا محبة الله ونعمته التي خلّصتنـــــا، فكنـــت أشعر أن تلك الأفراح ما هي إلاّ عربون أفراح السماء.

وبعد أن قضينا فترة تزيد عن العشرة أيام عُدنا مـــرة أخـــرى إلـــي الخرطوم، وبدأنا نمارس حياتنا وأشغالنا ونحن أكثر اطمئنانـــاً وهـــدوءاً، ذلك لأن أبي كان في غاية القوة والشجاعة، وكان السلام يملأ قلبه ممـــا

أشاع السلام والثقة في قلوبنا. ولقد غيّرت معرفتي بالرب كثيراً جداً من حياتي. نظرت إلي الحياة بصورة تختلف كلّية عن الصورة الأولي.

لقد شعرت بتفاهة الأمور الأرضية، وكم هي زائلة؛ ونظرت إلى حياتي على أنها الفرصة الوحيدة المتاحة لي لإكرام الله وخدمته. لم تعد أمور الحياة تشغلني كثيراً، وقلّت قيمتها في نظري، وتمنيت لو تكرست وأصبحت حياتي بالكامل للرب، ليستخدمها كما يشاء، وفيما يعود بالمجد لاسمه العظيم.

وأني في هذا المجال أجد لزاماً عليّ أن أذكر تلك العظة التي ألهبت مشاعري، وأعطتني دفعة قوية للخدمة: فقد زارنا أخ مصري، وقد قد دعاني لحضور ذلك الاجتماع صديقي ع.م، وكان ذلك في عام ١٩٨٠ تقريباً. وكانت تلك الخدمة هي الجمرة التي مس الرب بها شفتيّ واشتعلت في قلبي المحبة الحقيقية للنفوس الهالكة.

بهذه الرؤية الجديدة بدأت حياة الخدمة للرب، وكان الرب يقود خطواتي بطريقة عجيبة، فقد قصد في نعمته أن يعرفني الحق بأكثر تدقيق. فقد كان ضمن خطة الله في حياتي أن أتعرف علي أخ مؤمن شجعني كثيراً في طريق الخدمة ومعرفة الحق، وآخرون غيره كانوا لي بالحق أعواناً في حياتي الروحية.

١٩

في مساء أحد الأيام، وكان ذلك في أوائل عام ١٩٨٧، طرق بـــابي كُنده راعي الأبقار. كان كُنده يتردد عليّ، فلم تكن زيارتـــــه مفاجئـــة لي. غير أن ما فاجأني هو ذلك الشحوب الـــذي كـــان يعلـــو وجهــــه الأسمر النحيل، وتلك النظرة الزائغة التي تؤكد حدوث أمر خطير.

سألته وكان لم يزل واقفاً بجوار الباب:

♦ *ماذا بك يا صاحبي؟ لماذا لا تجلس؟*

ولما لم يجبنى هتفت به:

♦ *أتظل هكذا واقفاً؟*

نظر كُنده حوله، ثم جلس علي أقرب كرسي دون أن ينبس بكلمـــة، لكنه كان متوتراً جداً. وقد ذكرني تصرف كُنده بحادث كان قد مضـــي عليه أكثر من عشر سنوات، عندما سمع كُنده عـــن شـــخص يدعـــي "أنجالو توتو" لقي حتفه غرقاً في ماء النيل، فظن أن أنجالو هـــذا هـــو

أخي العزيز، فترك المراعي في الحال، ووصل إلي لوبا في منتصف الليل. ولما فتحنا الباب اندهشنا لزيارته المفاجئة؛ أما هو فكان منظره مضحكاً جداً، وقد أخذ ينظر إلينا مشدوهاً، وهو لا يجد في وجوهنا أي أثر للحزن. وإذ شك في صدق الرواية التي سمعها، اندفع فجأة إلي فراش أنجالو ورفع الغطاء، وإذ وجدة نائماً في هدوء لم يستطع السيطرة علي أعصابه فأخذ يهّزه هزاً عنيفاً وهو يردد:

○ ها أنت حي، أنت لم تمت، أبداً.. أبداً لم تمت.

ثم بدأ يبكي ويحتضنه، بينما كنا نحن في ذهول مما يحدث. ثم بدأنا ننظر إلي بعضنا البعض، وقد فهمنا الموقف، فأخذنا نضحك بلا توقف. أما أمي فأسرعت وأحضرت له كوباً من الماء حتى تهدأ أعصابه، وأخذنا نحن نهدئ من روعه حتى هدأ وبدأ يحكي لنا رواية الشخص الذي لقي حتفه غرقاً.

أقول؛ ذكرني موقفه هذا بذلك الحادث، ومع أنني كنت كلما أتذكر ذلك الحادث أضحك ملء شدقيّ، إلا أنني في هذه المرة توجست خيفة، فقلت بانفعال وقد بدأت أتوتر:

♦ *ماذا بك يا كُندو؟*

○ أبداً. أين كوكو؟

♦ *كوكو في بيته وسيحضر بعد قليل. لكن لماذا تسأل عن كوكو؟*

○ لأنهم أوصوني أن أخبر كوكو.

صرخت فيه:

♦ *أن تخبره عن أي شيء؟*

لم يعرف كُندة ماذا يجيب، فتلعثم قليلاً ثم قال:

○ إنني أريد كوكو.

صرخت في كُنده بأكثر شدة:

♦ *أخبرني ماذا تريد من كوكو؟*

قبل أن يجيب كُنده، سمعنا صوت طرقات علي الباب، فقفز كُنده بسرعة وفتح الباب، فقد خمّن أن كوكو هو الطارق؛ وكان ظنه صحيحاً. وما أن رأي كوكو حتى هتف به بانفعال شديد:

○ كوكو؛ أبوك مات، قتلوه بالرصاص، القبائل المتشددة قتلته.

انفجر كُنده باكياً بعد أن ألقي بهذه الأخبار المفجعة بلا تمهيد. بينما أصبنا نحن بصدمة أذهلتنا لمدة دقائق، ثم بدأنا نستوعب الموقف، فانهارت قوانا تماماً، وخاصة كوكو فقد كنت أنا أكثر تماسكاً منه.

خرجت للتو إلي بيت صديقي ع.م اخبره بموت أبي، فأسرع معي إلي منزلي، وأخذ هو يرتب حاجياتنا ويهيئ أمورنا للسفر إلي لوبا.

* * * *

وصلنا إلي لوبا ومعنا ع.م، وكنا في الطريق قد استعدنا شجاعتنا قليلاً، إذ كان صديقنا يشجعنا ويعزينا بكلماته القوية المطمئنة. غير أنه عند دخولنا المنزل انهارت قوانا مرة أخرى، ونحن نرى والدتنا

تبكي في حزن قاتل وهي تحمل كوجا بين ذراعيــها، وأنجــالو يلــف ذراعه حولها وهو ليس أقل منها حزناً وألماً.

أخذ أخوالي يهدئون من روعنا، وما إن هدأنا قليلاً حتى ســألناهم في لهفة عن ظروف موت أبينا.

أطرق خالي كنجو إلى الأرض، وكأنه يستعيد أحداث الموقف، ثــم رفع رأسه وتنهد عميقاً وهو يقول:

♦ *كان ذلك ليلة أمس عندما طرق بابنا كودي أبو كومي، ومــا أن دخل حتى ابتدرنا قائلاً:*

○ لقد حضرت للتو من زيارة شاب وثني في مقتبــل العمــر، يرقد علي فراش المرض منذ عدة شــهور بعــد أن داهمــه مرض خبيث، وهو صديق كومي ابني وإن كان مــن قبيلــة أخرى غير قبيلتنا أرينغ. حاول كومــي أن يجتذبــه إلــي الرب، ولكنه كان متشبثاً جداً بالديانة الوثنيــة. وحيــث أن حالته الصحية تتدهور يوماً عن الآخر، فقد قررت أن أذهــب بنفسي لزيارته. حدثته كثيراً وناقشته طويلاً، ولما أخبرتــه أن توتو أنجالو كاهن قبيلة أرينغ قد آمن بالمسيح، أجاب بــلا مبالاة: "إنها إشاعات كاذبة وقد ثبت عدم صحتها". أخــذت أؤكد له صحة هذه الأخبار بما لا يدع مجالاً للشك، فجلــس علي السرير واتسعت عيناه في دهشة فائقة وقــال لــي: "إذا

حضر السيد توتو لي وأكدّ لي أن ديانة لمبوراث هي ديانة باطلة فسأصدقه علي الفور، فليس من هو أكثر منه تعمقاً في ديانة آبائنا.

سكت كودي، وأخذ يجفف عرقه ثم قال:

○وها أنا قد أتيت إليك يا سيدي لكي تذهب معي إلي الشاب المسكين.

قام أبوكم علي الفور وأنتعل حذاءه ليذهب معه، وبالطبع حاولنا أن نثنيه عن الذهاب خوفاً علي حياته، إذ كانت أخبار القتل بالرصاص تتوالى علينا يومياً. حاولت أمكم كثيراً أن تمنعه من الخروج. حاولت وبكت وتوسلت إليه وحاولنا نحن أن نذهب بدلاً منه ولكنه أصر أن يذهب بنفسه. قلنا له:

○أنتظر حتى الصباح.

فأجاب:

♦*قد لا ينتظر هو حتى الصباح.*

رأت جفوه أمها تبكي، ونحن نتجادل معه، فتشبثت بملابسه وقد شعرت أن هناك خطراً يتهدده إن هو خرج. فأمسك هو بها برقة، وحملها وقبّلها في حنان وهو يقول:

♦*قد لا أراكِ ثانية يا عزيزتي، لكن طلبتي إلي الله أن تسلميه*

حياتك عندما تكبرين.

ثم حانت منه التفاته إلى كاكا والدتكم، وعلـــي ذراعيــها ترقــد كوجا، فانحنى وقبّل الأم والابنة وعاد فقبلنا مودعاً وهو يقول:

♦ *إن عدت فذاك لأستمر في خدمته، وإن لم أعــد فذلــك لمجــد اسمه العظيم.*

عند هذا الحد من القصة طفرت الدموع من أعيننا، وامتلأت عينـــا خالي بالدموع وهو يقول بصوت مهزوز وقــد فقــد الســيطرة علـــي مخارج الكلمات:

o عشر دقائق فقط .. فقط .. وسمعنا صوت الرصاص ثم ســمعنا بعدها صرخة مدوية ...

سكت خالي وانخرط في البكاء، ولم نستطع نحن الســـيطرة علـــي مشاعرنا فبكينا جميعاً من أعماقنا. بينما نحن علي هذه الحال فوجئنـــا بدخول كودي وكومي. وبعد أن سلمّا علينا ورددوا بعــض عبــارات التعزية كفكفنا دموعنا فقال خالي:

o إنني أقص عليهم ما حدث مع أبيهم.

فقال كودي:

♦ *هناك شئ رائع في القصة أعتقد أنك لم تسرده لأنك لا تعرفه.*

نظرنا جميعاً إلى كودي مستفسرين فقال:



عشر دقائق فقط .. فقط .. وسمعنا صوت الرصاص ثم سمعنا بعدها صرخة مدوية

♦ *لم يسعف الوقت أباكم ليصل إلي الشاب، فقد أودى به الرصاص قبل وصوله، لكن الشاب عرف ما حدث وقال أن هذه الحادثة أقوى في تعبيرها من أي حادث آخر، وأكثر إقناعاً من أي حجج أو براهين. وقد سلّم الشاب حياته للرب.*

هتفنا بصوت واحد:

○ شكراً للرب فهذا أكبر عزاء لنا.

أستمر كودي يقول:

♦ *وأكثر من هذا لقد تقابلت اليوم مع ثلاثة من الوثنيين أخبروني أن حادثة قتل توتو أنجالو كانت أقوى من أي كلمات تبشيرية عن المسيح وعن فدائه، وإنهم قد تركوا الديانة الوثنية إلي الأبد ليعبدوا الله الحي الحقيقي.*

عند هذا الحد شعرنا بسلام عجيب يملأ قلوبنا وتأكدنا تماماً من قول صديقي ع.م: *"إن قتل أبوكم فهذا إكرام عظيم له وشرف كبير لكم".*

وأخذ صديقنا يشجعنا قائلاً:

○ هذه بداية الثمار، ولكن انتظروا قليلاً لتروا كم الثمار الهائل الذي سينتج عن موت أبيكم، ليس فقط رجوع أعداد غفيرة عن الوثنية إلي الله بل أنتم ... أنتم أنفسكم، ستلتهبون غيرة وستتكرسون أكثر للرب، وستخدمونه أكثر جداً من كل

الماضي. تشددوا وتشجعوا فالرب سيعمل بكم عجبـــاً. فقــط تمسكوا بالرب وثقوا فيه وابدأوا العمل معه ومن أجله.

كانت كلمات مكي مشجعة لنا، وإني إذ أتذكرها الآن أدرك مقــدار ما كان لها من تأثير علي نفسي وعلي إخوتي أيضاً. وأراد الرب فــي نعمته الغنية أن يشجعنا أكثر إذ قبلت كوجي أختي الرب وتسمت باســم "سميرة" وتركت العبادة الوثنية هي وزوجها الذي كان شــديد التمســك بعبادة أجداده.

كل هذا كان له أكبر الأثر في نفوسنا فشعرنا بسلام عميــق يمــلأ قلوبنا، وبدأنا بالفعل نشعر بالفخر من جهة استشهاد والدنا.



تركنا لوبا، وعدنا كل واحد إلي مكانه وكلنا حماس وغـيرة علـي عمل الرب وعلي خلاص النفوس التي تعج بها البلاد حولنا.

وبدأنا الخدمة بمفهوم جديد، وفتح لنا الرب أفاقاً واسـعة للعمـل، فكنا أحياناً نتوجه - بإرشاد الرب - إلي أماكن محفوفة بالمخاطر إلـي الحد الذي يستوجب وجود "طوف"* معنا.

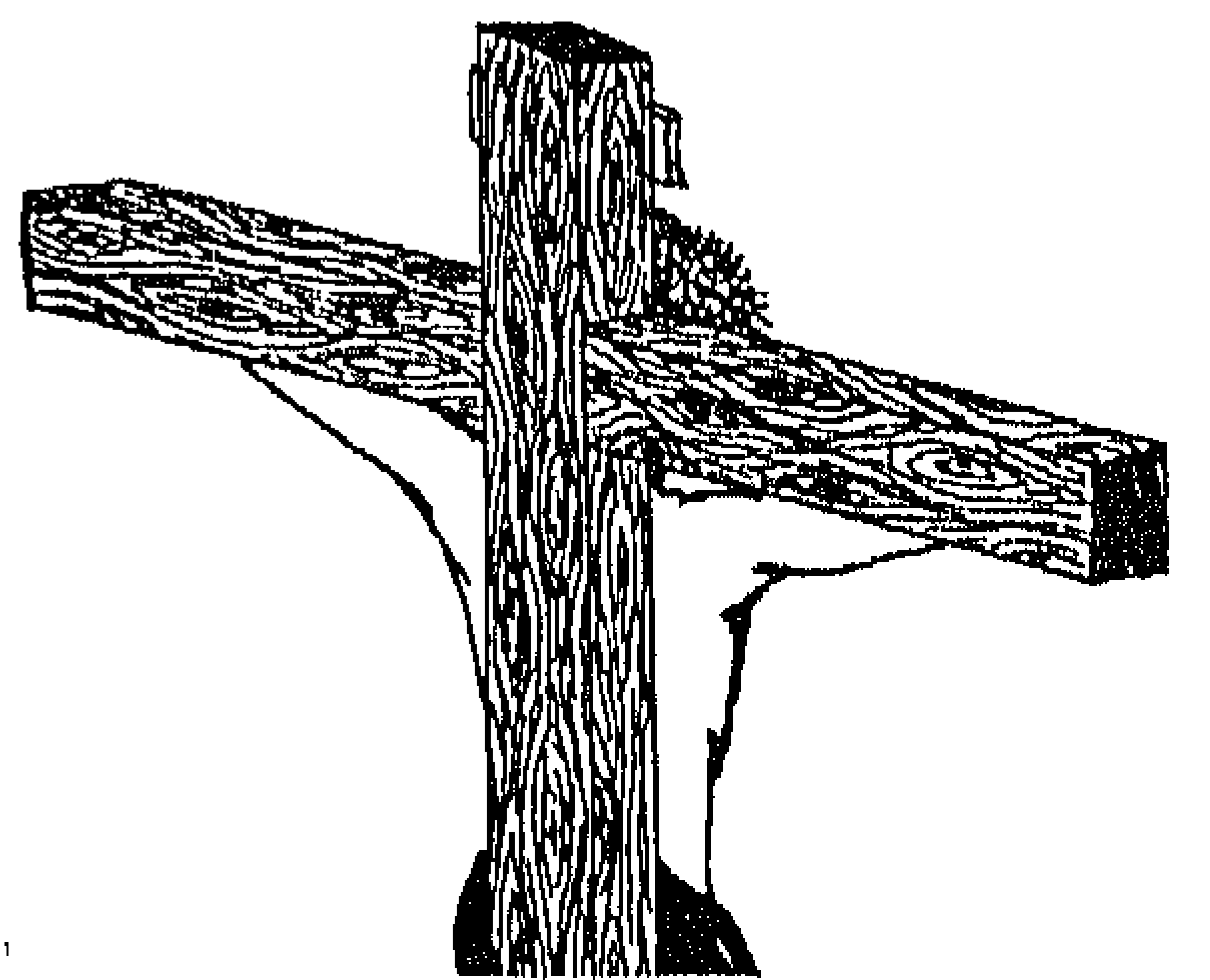
وطوال فترة خدمتي لم يمر يوم واحد عليّ أو علـى أخوتـي دون اختبار عمل نعمة الله في حياتنا. فيوماً بعد يوم نرى ونشـهد كيـف يستطيع الله أن يصل إلي النفوس التـي قيدهـا الشـيطان بسلاسـله الحديدية، كيما يحررها ويخلصها.

وإننى أدعوك - عزيزي القارئ - أن تعمل من أجل الرب. فحقـل

---

* طوف: حراسة

الخدمة يحتاج إلى أناس وضعوا قلوبهم على خدمته، منكرين ذواتهم من أجل مجده ومن أجل خلاص النفوس المسكينة.



وستتمتع بعظائم يجريها الله بك هنا، وبأكاليل يكافئك بها هناك. إن الرب الذي قدّم حياته من أجلنا على الصليب وأعطى لنا كل شيء، يستحق أن نترك من أجله كل شيء ونتبعه.

والآن – عزيزي القارئ – وأنا أنهي قصة الرب مع قبيلتي مورو؛ وكيف كانت هذه القبيلة مسرحاً واسعاً لاستعراض نعمته الغنية، ومجالاً خصباً لإظهار مراحمه العظيمة، فماذا أقول؟ وماذا أرد للرب؟ وكيف أكافيه علي معروفه العظيم؟!

أنني أردد قول المرنم:

يا صاحب الإحسان	لقد خلت يدي
ماذا أقدم؟	ماذا لك أهدي؟

يا رب أنني لك أكرس الحياة.

طبعت بمطبعة الإخوة بجزيرة بدران

رقم الإيداع: ٩٩/١٦٧٨٦

الترقيم الدولى: ISBN 977-321-010-3

يُطلب من:

مكتبة الإخوة

٣ش أنجه هانم - شبرا مصر ت: ٥٧٩٢٢٨٤

بريد الكتروني: *brethren_pub@writeme.com*

وفروعها:

مصرالجديدة : ٦٥ش نخلة المطيعي تريومف ت: ٢٩٠٤٠٠٣

الأسكندرية : ٦ش الفسطاط كليوباترا ت: ٥٤٦٥٣٦٦

المنيا : ٦ش الجيش ت:٣٦٤٤٠٦

أسيوط : ٢١ش عبدالخالق ثروت ت: ٣٤٢٠٢٨

ومن المكتبات المسيحية الكبرى

بعد سنين طويلة من التيهان في ظلمات الوثنية، والبعد عن الله في مجاهل تلك المعتقدات البالية، وصلت المحبة الإلهية، بغناها وقدراتها لتنقذ وتفتقد، لا فرد وحده، ولا أسرة بأكملها؛ بل قبيلة بأسرها.

هي قصة واقعية لمعاملات نعمة الله، والتي لا زالت تسعى إلى كل بعيد.